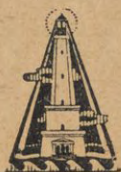
نوابغ الفكر العربي

٧

إخوان الصفاء

بقلم الدكتور جبور عبد النور

نفوس متوقدة توارت وراء غيوم السياسة
وبثت من خلالها أشعة العلم والمعرفة .



دار المعارف ببيروت

- النشأة : منتصف القرن الرابع الهجري
- تقسمت الدولة العباسية بين الأمراء والملوك
- كان يوجد تنافر سياسي شديد

١ - ظهور بعض الحكومات يرعون [illegible]
٢ - تقسيم السلطة إلى فرق
٣ - الأسر الحاكمة بدأت تتوسع وتفتح

الفصل الأول

عصر إخوان الصفاء

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية

نشأ إخوان الصفاء حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، بعد أن عصفت بالخلافة الإسلامية أيدى الحدثان[1] ، وتقسمها أمراء وملوك ، ولم يبق للعباسيين إلا بعض نفوذ فى ما يطيف ببغداد ، أو فى توزيع الألقاب على أصحاب السلطة الفعلية .

ساد بنو بويه على فارس والرى وأصبهان ، وسيطر الحمدانيون على الموصل وديار بكر وربيعة ومضر ، واستأثر الفاطميون بالمغرب وإفريقية ، وتسلط الأمويون على الأندلس ، والقرامطة[2] على اليمامة والبحرين ، والديلم[3] على طبرستان وجرجان . والقليل من المتملكين على هذه الأقطار من اعترف للعباسيين بالسيادة . فقد أصبح فى الإسلام ثلاثة خلفاء فى وقت واحد : أحدهم فى العراق ، والثانى فى شمالى إفريقية ، والآخر فى إسبانيا . ودارت الإمارات الصغيرة فى فلك هؤلاء مستوحية فى ولائها مصلحة الأسر الحاكمة .

---

(١) حدثان الدهر : نوائبه .

(٢) القرامطة : هم الباطنية الذين يعتقدون عقائدهم سراً فيتداولونها مع أتباعهم ويظهرون خلاف ما يبطنون . وأصل دعوتهم جماعة منهم عبد الله ميمون القداح ومحمد بن الحسين المعروف بدندان قبض عليهم المأمون وأودعهم السجن فلما خلصوا تفرقوا فى البلاد . ومن أتباعهم حمدان بن الأشعث وهو حمدان قرمط الذى نشر الدعوة فى البحرين وكان رأس القرامطة وانتشرت فتنته زمناً طويلا وكثر أتباعه وحاربوا جيوش الخلفاء العباسيين وتغلبوا عليها . ويقال إن القرامطة أخذوا مذهبهم من صابئة حران الذين يكتمون أديانهم ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم .

(٣) الديلم : الجزء الجبلى من جيلان غربى أذربيجان وتسكنه قبيلة تعرف أيضاً بالديلم . وكان ملوك الديلم يمدون الخلفاء العباسيين بالجنود المرتزقة وهم الذين تولوا بزعامة أحمد بن بويه خلع الخليفة المستكفى سنة ٣٣٤ هـ

كان التنافر السياسى والفكرى على أشدّه ، لأن معظم هذه الحكومات مهدت لظهورها بدعاوة دينية ، فقسمت المسلمين إلى فرق تتقارع [١] بالسيف والكلام ، وقامت الحواجز بين أجزاء الخلافة القديمة ، وعملت كل أسرة على توسيع رقعة نفوذها بالتضييق على خصيمتها[٢] ، فبثّت الدُّعاة ، ونثرت الأموال ، وشجّعت الثائرين فى البلدان المجاورة لها .

سبق دخول بنى بويه بغداد عام ٣٣٤ هـ انتشار الفساد فى الحكم بحيث كانت أيام الخليفة المقتدر أسوأ ما عرفه تاريخ العرب . غلبت كلمة جوارى القصر وخدمه على كلمة القواد والأمراء ، وأنفقت الأموال العامة فى غير وجوهها ، وولى الوزارة جماعة من المضللين الذين أرضوا رجال الخليفة وأمه بما بذلوه من الرشوة على أمل أن يستعيدوا ما أنفقوه أضعافاً مضاعفة ، وتقلص نفوذ الخليفة فيها من بعد وأصبح رئيساً دينيًّا مجرداً من كل سلطان فعلى : ليس لديه من الموظفين سوى كاتب يدير أملاكه .

لم تكن هذه الحالة سوى نتيجة طبيعية ومحتومة للثورات المتتابعة التى تعاقبت على الخلافة ، فأغرقها أصحاب الأمر فى الدماء عوضاً عن أن يتلمسوا ما ترتكز عليه من نقمة ، فيزيلوا أسبابها ، ويعدّلوا النظم الفاسدة السائدة آنذاك . فالقلق الاجتماعى تسرّب إلى كثير من الطبقات العاملة فى المدن والمزارع ، عرباً كانوا أم أعاجم ، والثروات والسلطات تجمعت فى أيدى جماعة من الفاسدين الذين فقدوا كل إحساس بالعدل والاستقامة ، فجعلوا مثلهم الأعلى فى الحياة ، إرهاق الضعفاء والتفنن فى إذلالهم والمغالاة فى الترفّه . ولقد تعددت الانتفاضات الاجتماعية منذ ابتداء العهد العباسى ، فنشطت الجماعات الفارسية ، ومن انضم إليها من العناصر الناقمة والمظلومة ، وتمثلت نقمتهم فى ثورة الخرّمية[٣] . وتبين لهذه الفئات بعد إخفاقها فى تحقيق

---

(١) قارع وتقارع القوم : ضارب بعضهم بعضاً .

(٢) الخصيم : المخاصم .

(٣) الخرمية : فرقة ظهرت فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، وثارت على العباسيين . تزعمها بابك الخرمى . وقد قبض عليه الخليفة المعتصم وقتله سنة ٢٢٣ هـ . آمن أتباع هذه الفرقة بالتناسخ ، ونادوا بالإباحية .

أهدافها الاشتراكية بحد السيف ، وتألب القوى الرجعية فى وجهها ، أن أفضل سبيل إلى بلوغ غايتها هو اعتمادها الدعوة السرية ، وإعداد الأذهان لثورة فكرية تستتبع المكاشفة بحقيقتها بعد إذ تكتمل لها عوامل النجاح . وتمثلت النقمة فى مظاهر مختلفة ، وتحت أسماء متعددة ، ولكنها تلاقت فى نقاط مشتركة ، منها الثورة على الدولة الحاكمة ، والسعى لتعديل نظام الطبقات الاجتماعية ، وتحسين حالة المزارعين والعمال ، ثم الاستهانة بالعقيدة الدينية الرسمية ، والاتفاق على أنها الوسيلة الفعالة التى استخدمها السلطان الفاسد فى ترسيخ قدمه . وفى مطلع القرن الرابع الهجرى ، أى فى عام ٣١٧ هـ بلغ من نقمة إحدى هذه الفرق أن دخل رجالها مكة فى موسم الحج وسلبوا الناس أموالهم ، وقتلوا بعضهم ، واقتلعوا الحجر الأسود وطرحوا الجيف فى بئر زمزم ، وانتزعوا الكسوة وتوزعوها بينهم (١) .

كان الناقمون يتسترون بالتشيّع ، فيدّعون فى معظم الأحيان أنهم يعملون فى خدمة آل البيت ، ويمزجون آراءهم الدينية بنظريات الفلاسفة وعقائد الأديان القديمة ، ويخرجون من هذا المزيج بتعاليم جديدة يبثونها فى البيئات الإسلامية ، وينظمون أتباعهم تنظيماً دقيقاً ، ويوزعونهم حلقات بحيث يتيسر تدريبهم والاتصال بهم عند الحاجة .

ومن أشهر الجماعات السرّية التى نشطت آنذاك جمعية إخوان الصفاء . سعت فى كسب الأنصار ، وتأليبهم حولها ، ووضعت المؤلفات الفلسفية الدينية ، وبثتها بين طلاّب الحكمة ، وسهلت لهم الاطلاع على خفايا الشرائع . وهى تحتلّ فى تاريخ الفكر العربى مقاماً رفيعاً ، وتمتاز بأن أعضاءها سعوا إلى الإصلاح الاجتماعى والدينى إلى جانب ما قاموا به من تبسيط العلوم ونشرها فى بيئتهم .

---

(١) أقدم على هذا العمل زعيم قرامطة البحرين أبو طاهر الجنابى . وعندما عرف المهدى عبيد الله العلوى الفاطمى فى شمالى إفريقية بالأمر كتب إلى الجنابى يلومه على فعله ، فأرجع الحجر الأسود إلى موضعه ، ورد بعض الأسلاب إلى أصحابها .

الفصل الثانى

إخوان الصفاء فى عصرهم

١ ــ نشر الدعوة

يوجه إخوان الصفاء جلّ اهتمامهم إلى بثّ الدعوة بين الفتيان ، لاعتقادهم أن الإنسان فى مثل هذا الطور من الحياة قابل للتكييف والتخلق بالجديد من العادات ، إذ يكون ذهنه خالياً من العقائد والنظريات « كمثل ورق أبيض نقى لم يكتب فيه شىء[1] » ، ويرون أن الفتوّة شرط رئيسى لترسيخ الدعوة . ويستشهدون على ذلك بأن الله ما بعث نبيًّا أو رسولا إلا وهو فى سن الشباب . أما الشيوخ والمتقدمون فى العمر فإن الدعوة الموجهة إليهم تذهب أدراج الرياح : لا تقوى بلاغة ولا حجّة على اقتلاع ما غرس فى نفوسهم ، وما هرموا عليه من الآراء الفاسدة . يتعبون ولا ينصلحون ، وإن صلحوا قليلا لا يفلحون . ويدعمون رأيهم بأن أول من يقوم فى وجه أصحاب الأديان مشايخ قومهم ، ولا ينصرهم إلا الفتيان أصحاب الأذهان الصافية .

يسعى الإخوان جاهدين فى اكتشاف العناصر الفتية الموافقة لدعوتهم ، فإذا عثروا على فتى تتوافر فيه شروطهم استبشروا خيراً ، وعمدوا إلى أساليبهم الخاصة فى عَجْم عوده[2] ، والوقوف على ميوله ودراسة خلقه وبيئته وعقائد أهله ، واستعداده ليكون واحداً منهم يؤتمن على بعض أسرارهم . فإذا اجتاز هذه المرحلة من التدقيق فى خلقه ، وقفه الأخ المعنىّ به على مقاطع من رسائلهم المعروفة ، وباحثه فى الأمور الواردة فيها ، دون أن يقطع فى واحد منها ، مؤجلا

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ١١٤

(٢) عجم العود : عضه ليعلم صلابته من رخاوته .

الحل النهائى إلى ما يتلوها من رسائل أو من كتب خفية يستأثر بها الإخوان فى مجالسهم الخاصة . ويكون الاتصال التمهيدى وسيلة بارعة للإكثار من التساؤل ، وإثارة الفضول ، وترقب الحلول ، والتشوق إلى المستقبل ، حتى تبلغ الرغبة فى نفس الفتى الأوج[١] ، ويعتقد أن كل مغلق من أسرار الكون والإلهيات سينفتح له إذا ولج باب الجمعية . وهذا الطور يطلق عليه الإخوان اسم « تصفية النفس » ، وفيه ترويض محتوم على كل من أراد الانتماء إليهم ، ومشاركتهم فى الجلسات التى يعقدونها . وهم يوصون المتمرسين بالمسؤوليات منهم بأن يثقفوا المريدين ويهذبوهم قبل أن تكشف لهم « أسرار الحكمة » ، لأن الحكمة كالعروس تريد لها مجلساً خالياً ، ومثل المفكر الذى يكشف أسرار الحكمة قبل التمهيد لها بهذه المقدمات الضرورية مثل حاجب ملك أذن لقوم بُلْه فى الدخول على مولاه من غير تأديب ولا ترتيب ، فهو يستحق العقوبة[٢] .

٢- نظام الحلقات

من المعروف أن الإخوان انقسموا حلقات « طوائف » ، يختلف عدد المنضمين إلى كل واحدة منها باختلاف المدن أو القرى ، وأن الإدارة المركزية ندبت لكل طائفة أخاً وثقت من بصيرته ومعارفه وخلوص عقيدته لينوب عنها فى توجيه الأفراد ، وإعداد أذهانهم ووقفهم على ما يجب أن يعرفوه من أمورها . وفى الرسائل مقاطع كثيرة تشير إلى تكليف بعض الأفراد القيام بهذه المهمة[٣] . ومنها يتبين أن اهتمام الإخوان توجّه إلى الفتيان المنتمين إلى الطبقة المتنفذة من أبناء الحكام والتجار والفقهاء والعلماء وأرباب الأموال[٤] . وكان المدبرون يطلعون المركز الرئيسى على كل ما يستجدّ لديهم من أمور ، وينقلون إليه أسماء الأشخاص الذين يتّصلون بهم ، وينوون ضمهم إلى الجمعية ، ثم

---

(١) الأوج : العلو

(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ٨٠

(٣) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧

(٤) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٣٧

ما يلاقونه من نجاح أو عقبات فى دعوتهم . وكثيراً ما يرد الجواب فإذا فيه توجيهات حكيمة مفصلة للأسلوب الذى يجب اتباعه فى مداراة هذا أو ذاك من الفتيان . وفى الرسائل مقاطع تتضمن مثل هذا الكلام : « قد فهمنا أيها الأخ الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، ما ذكرته مما جرى بينك وبين أخ من إخواننا من المذاكرة والبحث عن مبادئ الموجودات ، وعلل الكائنات ، وما شكوت من صعوبة انقياده إليه من صفوة الأخوّة والمعاونة على نصرة الأديان النبوية ، وما وصفت من شدّة استغراقه فى الآراء الفلسفية وإعراضه عن معرفة أسرار الكتب الإلهية . . . فاصبر عليه أيها الأخ ، وداره بالرفق ، وذاكره بهذه الرسالة فلعله يتقرّر فى نفسه ما تدعوه إليه »[١] .

غير أن الاختلاف فى الرأى ليس معناه فى معظم الأحيان نفوراً من مذهب الإخوان لاعتقادهم أن الجدل الذى يشيع فى الحلقات وسيلة من الوسائل المستخدمة فى الإقناع وتفتيح الشهوة للخوض فى الكلام ، وتخريج المذاهب . أما إذا استشرى[٢] الخلاف ، وأدى إلى خروج العضو من الجماعة بعد أن يكون قد أقسم بالوفاء لها ، فإن الإخوان يتبرأون منه ، ويدعون الاستعانة به فى أمورهم ، ويمتنعون عن معاشرته فى معاملتهم ، ولا يكلمونه فى علومهم ، ويطوون دونه أسرارهم ، ويوصون جميع الأعضاء بمجانبته[٣] . ولعلهم يعمدون أيضاً إلى وسائل فعالة غير هذه يضمنون بها كتمانه بعض الأسرار التى وقف عليها ، غير أننا لا نجد فى الرسائل إشارة إلى استخدام العنف ، وإن كانت هذه الوسيلة من الأمور الممكنة التى لا يستبعد استخدامها فى مثل هذه الظروف .

أما إذا خلصت النيات ، ووفى العضو بقوله وعمله ، وآنست الجماعة منه صدقاً فى العقيدة ، فإنها تحيطه برعايتها ، وتمهد أمامه الصعوبات ، وتأخذ بيده فى حياته العملية ، وجهاده الفكرى . ويفيدون من صلاتهم الكثيرة مع أصحاب السلطان ، ومن انتشار الأعضاء فى كل مكان ، ولدى المتنفّذين ،

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦
(٢) استشرى الخلاف : تفاقم وعظم .
(٣) الرسائل : ج ٤ ، ص ١٨١ .

ليأخذوا بيد إخوانهم . فإن كان العضو ممن يخدم السلاطين ، ويتصرف فى أعمالهم أوصوا الإخوان الذين يلازمون السلاطين والملوك بالثناء عليه ، وإذا كان من المتموّلين وأصحاب الضياع والأملاك يوصون المتولين للمناصب بصيانته وحسن معاملته ، وكف الأذية عنه ، وإن كان من الفقراء المعوزين يؤاسونه بما يتيسر لديهم من المال ، وإن كان من طلاب العلم يقفونه على ما يبلغه مراده[١] . وكثيراً ما يوصون من رزق المال ، ولم يعط العلم أن يطلب أخاً ممن وهب المعرفة ويضمه إليه فيؤاسيه ذاك من ماله ، ويرفده هذا من علمه ويتعاونان جميعاً على إصلاح أمر الدين والدنيا[٢] . وهكذا تشتدّ الأواصر بين الأعضاء ، ويحس كلّ فرد منهم ، كبيراً كان أم صغيراً ، غنيًّا أم فقيراً ، متنفذاً أم مستضعفاً ، أن جماعته تسانده فى الشدائد ، وتأخذ بيده لتحقيق أهدافه ، وردّ كيد الأعداء . ويقوّى هذا الشعور فيهم اعتقادهم أنهم يؤلفون كياناً واحداً ، وأن من استشهد منهم فى سبيل الآخرين تخلص روحه إلى السعادة الأبدية . ويسوقون ، لتأييد قولهم ، أمثلة كثيرة يبينون فيها أن الموت فى سبيل الإخوان أمر هين ، و « أن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ونصرة الدين وصلاح الإخوان ، فإن نفسه – بعد مفارقة جسدها – تصعد إلى ملكوت السماء ، وتدخل فى زمرة الملائكة ، وتحيا بروح القدس ، وتسبح فى فضاء الأفلاك ، فى فسحة السموات فرحة مسرورة ملتذّة مكرّمة مغتبطة[٣] »

٣ ـ مراتب الأعضاء

ليس أعضاء الجمعية فى مرتبة واحدة ، وإنما هم يختلفون فيما بينهم باختلاف السن ، واستعدادهم لقبول التعاليم ، وإدراك كنهها ، فهم يتفرّعون على أربع

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢١٥

(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ١١٦

(٣) الرسائل : ج ٤ ، ص ٨٩ يوردون على ذلك مثال الحكيم وزير الخيشوان مع فيروز ملك الفرس ، ومثال الحب والغواصين . ج ٤ ، ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩

مراتب : تتألف الأولى من الفتيان الذين تروح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثلاثين . وفى هذا العهد تكون جواهر نفوسهم صافية سريعة التصور والانطباع . ويخاطبون هؤلاء فى رسائلهم بقولهم : « إخواننا الأبرار الرحماء » . أما الثانية فتشتمل على الأعضاء الذين تروح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين ، وهؤلاء يشرفون على السابقين ، ويوجهون الكلام إليهم : « إخواننا الأخيار الفضلاء » . والمرتبة الثالثة تتألف من الأعضاء الذين تروح سنهم بين الأربعين والخمسين ، وهم الذين يدافعون عن الجمعية ويردون كيد خصومها بوسائلهم الخاصة . ويخاطبونهم بقولهم : « إخواننا الفضلاء الكرام » . أما المرتبة الأخيرة فهى للذين بلغوا الخمسين ، ويمثلون الفئة المختارة التى انكشف أمامها الستر ، وبانت لها الحقائق ، وهى تشبه حالة الإشراق التى يذكرها الفلاسفة[١] .

من المعتقد أن لكل مرتبة من هذه الجماعات مجالس خاصة ، لا يدخلها إلا من يدعى إليها . وقد فرضت الجمعية على أعضائها أى يكون لهم مجلس معيّن يجتمعون فيه فى أوقات معلومة ، ولا يداخلهم فيه غيرهم . فيتداولون فى شؤونهم وعلومهم ، حسب درجاتهم . ومن الثابت أن لكل فئة مباحثها وهمومها وقضاياها تتناقش فيها . وأن المرتبة الأولى المؤلفة من الفتيان ، أكثر ما تتجادل فى علم النفس والحس والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والنظر والبحث فى أسرار الكتب الإلهية ، والتنزيلات النبوية[٢] . ويتذاكرون أيضاً فى العدد والهندسة والنجوم ، وأخص ما يعنون به العلوم الإلهية ، أو بكلام موجز ، المباحث التى تضمنتها الرسائل المعروفة . أما المجالس التى تضم أصحاب المراتب الباقية فإنها تحفل ، دون شك ، بمباحث أبعد أثراً من هذه ، لا نجد إليها إشارة فى النصوص التى وضعوها لعامة الناس أو للمبتدئين من أتباعهم . غير أننا نعثر فى الرسالة الجامعة[٣] على سطور توضح نظام هذه المجالس ، والغاية منها ، ومهمة الرئيس فيها . وتتضمن إشارة عابرة إلى الحالة التى ينبغى أن يكونوا

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ١١٩ وما بعدها . كرر النص نفسه بحرفيته فى ج ٤ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤

(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ٣٩٥ وما بعدها .

(٣) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٣٩٥ ، وما بعدها .

عليها فى اجتماعاتهم وفى أعيادهم ، ومواضع صلواتهم وعباداتهم ومذاكراتهم فى علومهم .

يقضى نظامهم بأن يجتمعوا فى كل اثنى عشر يوماً مرة واحدة ، فى مكان يتفقون عليه وتتوافر فيه شروط الأمن . فيتوافدون إليه بعد أن يتطهّروا ، ويتنظّفوا ويأخذوا زينتهم بأحسن ما يقدرون عليه[1] . وعلى كلّ عضو أن يلبّى الدعوة ، فلا يتخلف عن الحضور إلا من اعتذر لسبب يمنعه من القدوم. ويُفرض على الرئيس أن يبرز لهم فى هيئة جليلة ، ولعله كان يرتدى ثياباً خاصة لمثل هذه المناسبة ، بحيث يزداد مظهره الخارجى وقاراً ومهابة . فإذا واجههم أخذ يتلو عليهم من حكمته ، ويعظهم بحسب ما يحتمل مكانهم ، وتتسع له أذهانهم[2] . ولا يقتصر أثر الرئيس على هذه الاجتماعات العامة ، بل عليه أن يتتبع كل عضو فى مضطرب حياته العملية ، وأن يمتحن إيمانه فى أمور دنياه ، فيطلب منه الابتعاد عن أهليه ، والقيام ببعض المهمات الصعبة بحيث يتثبت من نيته ، واستعداده للتضحية فى سبيل الجماعة . وفى هذه الاجتماعات تتلى الرسائل المعروفة ويشرح الغامض منها ، ويعقب عليها بالشروح الواردة فى الرسالة الجامعة ، أو بنصوص مأخوذة من « الكتب السبعة » و « الجفرين » و « الرسائل الخمس والعشرين »[3] .

أما تفصيل ما يتعلق بأزيائهم وشعائرهم الطقسية عندما يقومون بالصلاة والعبادة والاحتفال بالأعياد ، فإنهم يتوقّفون عن الإفصاح عنه ، بعد أن أشاروا إلى ذلك بإيجاز فى الرسالة الأخيرة من المجموعة العامة .

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٣٩٥

(٢) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٣٩٦

(٣) لا يعرف محتوى المصنفات الثلاثة الأخيرة ، وإنما يذكرون أسماءها دون تحديد مضمونها فى الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٣٩٩

٤ – غايتهم الظاهرة

من الأقوال التى يكررها الإخوان فى كثير من مقاطع رسائلهم أنهم يهدفون إلى غاية بينة لا تختلف فى كثير عما سعى إليه جميع الفلاسفة الإشراقيين [١] ولقد رددوا فى أحاديثهم ، كما يذكر أبو حيان التوحيدى [٢] ، أن الباعث الأول الذى دعاهم إلى التآلف والتصافى والعمل هو « أن الشريعة قد دنّست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال [٣] » . وتناول الباحثون هذه العبارة بالتفصيل ، واستشهدوا على صحتها بالنصوص الكثيرة المنثورة فى تضاعيف الرسائل . والواقع أن الإخوان لم يدعوا فرصة عارضة إلا وسّعوا هذه الفكرة ، وأسهبوا فى إبانة ما هى عليه من الصحة . فإذا بتقاليد الفلاسفة الانتقائيين [٤] ،

---

(١) الفلاسفة الإشراقيون : أتباع المذهب القائل بحكمة الإشراق أو الحكمة المشرقية (بضم الميم) وهى ترد عند كثيرين باسم الحكمة المشرقية (بفتح الميم) أمثال بوكوك Pococke ومونك Munk ورينان ويطلق هذا الاسم بوجه خاص على تلاميذ السهروردى المتوفى عام ١١٩١ م ولكن هذا المذهب واسمه سابقان فى الواقع على عهد السهروردى بزمن طويل ، وهذه الحكمة هى عبارة عن مذهب التوفيق فى الفلسفة اليونانية الذى انتقل إلى الشرق فى كتب الأفلاطونية الجديدة وهرمس وما شابهها وامتزج بآراء الفرس وغيرهم وهى فلسفة روحانية لها فى نظرية المعرفة مذهب صوفى وتعبر عن الله وعالم العقول بالنور . والمعرفة الإنسانية فى هذا المذهب عبارة عن إلهام من العالم الأعلى يصل إلينا بواسطة عقول الأفلاك . وقد تأثرت الفلسفة الإسلامية بهذا المذهب منذ نشأتها إلى وقتنا الحاضر تأثراً كبيراً .

(٢) أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى سمى كذلك نسبة لأحد أجداده الذى كان يبيع نوعاً من التمر يسمى « التوحيد » أو لأنه كان من القائلين بالتوحيد فى الله . فقيه وفيلسوف ومتصوف وصاحب مصنفات مختلفة بلغت بضعة عشر مصنفاً عاش فى القرن الرابع وعمر نحو ثمانين عاماً قضى نحو ٢٠ عاماً منها ببغداد ونفى منها سنة ٣٥٢ لزندقته . عاش فى أواخر أيامه ببغداد فى فقر مدقع وأحرق مكتبته واعتذر عن هذا العمل بإعراض أهل بغداد عنه .

(٣) أبو حيان التوحيدى ، الإمتاع والمؤانسة : ج ٢ ، ص ٥ ، القاهرة ١٩٤٢

(٤) الفلاسفة الانتقائيون : أو الفلاسفة الموفقون Eclectiques هم أصحاب المذهب التوفيقى الذين يجمعون بين آراء ومذاهب مختلفة ويحاولون التأليف بينها لتكون فلسفة واحدة . ولما كان هؤلاء الفلاسفة يتخيرون أو ينتقون أو ينتخبون بعض الآراء من المذاهب التى يوفقون بينها فقد سماهم بعض الباحثين بالانتقائيين أو الاختياريين .

والمذاهب الشرقية التى امتازت بارتكازها على أسّين متساويين فى القوة والأهمية : الدين والفلسفة ، تتمثل أيضاً فى مدرسة إخوان الصفاء بأجلى وضوح وأدقّ بيان . ولقد اتسع أفقهم بحيث « لا يعادون علماً من العلوم ، ولا يهجرون كتاباً من الكتب ، ولا يتعصبون على مذهب من المذاهب ، لأن رأيهم يستغرق المذاهب كلها ويوحّد العلوم جميعها[١] » ويكررون الوصية نفسها فى الرسالة الجامعة ، فيحضّون أحد رؤسائهم على أن يوصى الجماعة التى تأتمر بأمره بألاّ تهجر مصنّفاً من المصنّفات الحكمية ، ولا رسالة من رسائل الأنبياء ، وألا تبغض علماً من العلوم الحقيقية وإن بعدت معانيها وصعبت إشارتها وتعذر البلوغ إليها[٢] .

أدّت بهم هذه النزعة إلى أنهم ، إذا شاؤوا تؤكيد قضيّة من القضايا أو إثبات حكم من الأحكام ، بدأوا بذكر فكرتهم ثم أيدّوها بما ورد فى كتب الأنبياء ، وبما أثر عنهم من أقوال . وهذا النهج هو من طرائقهم الشائعة فى كثير من الرسائل ، فإذا أرادوا مثلا تأييد الرمز الذى ساقوه فى كلامهم على ابتداء أمرهم ، وبث دعوتهم تمثلوا بنوح ، وموسى ، واليزدان[٣] وعاذيمون[٤] ومحمد[٤] . . .

وانتهت بهم نزعتهم التوفيقية والانتقائية إلى أن يروا فى جميع المذاهب الفلسفية مذهباً واحداً ، يوافق جوهر الأديان ، ونظروا إلى الأنبياء نظرهم إلى الحكماء ، وساقوا أقوال الفئتين على أنها مؤيدة لأحكام متشابهة . ونلمس هذه المحاولة فى الكثير من صفحاتهم حتى نكاد نعتقد أن هيكلهم يحتوى على كل ما تعلق به عقل الإنسان وقلبه من فكر وعاطفة . ينظمون إبراهيم

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ١٠٥ ، ص ٢١٦

(٢) الرسالة الجامعية : ج ٢ ، ص ٤٠٣

(٣) اليزدان : بمعنى النور . وتقوم الفلسفة الزرادشتية على أن النور والظلمة هما فى هذا العالم القوتان المتحاربتان وسوف تبقيان فى عراك دائم حتى ينتصر النور والخير وتقهر الظلمة والشر .

(٤) عاذيمون : ويرسمه العرب بطرق مختلفة من مثل غوثاذيمون وأغثاذيمون ويزعمون أنه معلم إدريس ويذهبون إلى أن إدريس هو هرمس إله الحكمة عند الإغريق .

(٥) الرسائل : ج ٤ ، ص ٨٢ — ٨٦

ويوسف والمسيح ومحمداً وسقراط وفيثاغورس[١] فى مدرسة موحدة الأهداف مختلفة الأساليب .

هذا موقفهم من حيث النظر إلى المذاهب الشائعة وإلى الفرق المتعددة ، والكتب المتداولة . ولكن الغاية التى يدعون أنهم يهدفون إليها فى اتباع هذا النهج التوفيقى هى بث معتقداتهم من خلال المباحث المتعلقة بالبعث والقيامة والحشر والنشر والحساب ، لأن « علمها هو الغرض الأقصى من وضع الرسائل كلها[٢] » وفى كل من هذه الأبواب يتمثلون بمقاطع من كتب المفكرين وأقوال منزلة من الأديان ، وبأحاديث ثابتة عن الأنبياء . وهكذا ينتهى المطالع إلى أنهم جهدوا أنفسهم ، عهد الخلاف والشقاق ، وتعدد الفرق والأحزاب ، فى إعادة الوحدة إلى الإسلام ، والجمع بين المسلم والنصرانى والمجوسى[٣] واليهودى والأفلاطونى[٤] والمشائى[٥] والفيثاغورى[٦] ، وتوجيه الجميع إلى غاية واحدة هى : الحقيقة المطلقة .

٥ ـ غايتهم الباطنة

ا ـ ميلهم إلى العلوية

للإخوان ميول خاصة باطنة لا يصرّحون بها فى رسائلهم إلا مموهة ، وبأسلوب رمزى يحتمل التأويلات المختلفة ، ويفهمه القارئ المتطفل حسب

---

(١) راجع التمثل بهم فى الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٢٣

(٢) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ١٨٧

(٣) المجوس : هم عبدة النيران فى فارس وهم من الأثنينية الذين اعتقدوا أن أصل العالم إلهان قديمان يزدان وأهرمن أى النور والظلمة .

(٥) المشاءون : هم أتباع أرسطو سموا كذلك لأن أرسطو كان يعلم تلاميذه وهو يمشى فى مماشى بستان اللوقيون أى المدرسة التى كان يعلم بها . وظلت المدرسة بعد أرسطو قائمة على شرح كتبه واستمرت زمناً طويلا يقرب من تسعة قرون .

(٦) الفيثاغوريون : نسبة إلى فيثاغورس الفيلسوف اليونانى وكان صاحب مدرسة نشأت فى القرن السادس قبل الميلاد واستمرت بعد ذلك وله أتباع كثيرون . ويمتاز الفيثاغوريون بالبحث فى العلوم الرياضية وفى الاعتقاد بتناسخ الأرواح وخلود النفس وفى سلوك طريق من الزهد والطهر .

مذهبه الخاص ، ويخلص إلى مغزاه المقصود الأخ المدرّب . وتتفاوت هذه الميول من حيث أهميتها ومن حيث علاقتها بصميم مذهبهم الخفى . ففى الرسائل تصويب للدعوة العلوية ، ومسعى جدّى لإقامة نظام سياسى جديد ، كما أن فيها إشارات عابرة وغامضة نستشفّ منها ميلا خفيًّا إلى المجوسية الفارسية المعدلة بالوثنية الإغريقية .

لا شك أن أقوالهم فى تأييد العلوية ترد فى خفر وتورية ولكن دون أن يغالوا فى إخفائها لأنها ليست من الأمور التى تبغضهم إلى الناس ، وتؤلّبهم عليهم ، بل ربما كانت من الأسباب الرئيسية التى دعت إلى ذيوع مذهبهم فى البيئة العلوية ، وحاولوا بها إخفاء الغاية الفضلى والقصوى . ومع ذلك فهم حذرون لا يذكرونها صراحة . تراهم مثلا فى الرسالة الخامسة يعرضون للموسيقى (١) فيفصلون فيها أصل هذه الصناعة وكيفية إدراك القوة السامعة للأصوات ، وامتزاج هذه الأصوات وتنافرها ، وتأثر الأمزجة بها ، وأصول الألحان وقوانينها ، وصناعة الآلات وإصلاحها ، وغيرها من الفصول الفنية والعلمية ، وفى غمرة هذه الأبواب يقولون إن لكل نفس من المؤمنين أبوين فى عالم الأرواح ، كما أن لأجسادهم أبوين فى عالم الأجساد ، ويستشهدون على ذلك بقول للنبى خاطب به على بن أبى طالب جاء فيه : « أنا وأنت يا على أبوا هذه الأمة » . ويسارعون عائدين إلى سياق البحث متظاهرين بالرصانة العلمية ، بعد أن فصلوا فى أمر رئيسى يفرق بين الشيعة والسنّة وهو الإقرار بتفوق علىّ على بقية الصحابة ، وبأن عليًّا هو إلى طبقة الأنبياء أقرب . وهذا هو المحصل الذى حاولت الشيعة على تعدد فرقها الوصول إليه . وحاذر الإخوان ذكر أسماء الأعلام إلا فى النادر ، لأن فى الإكثار منها إبانة عن حقيقتهم وتحديداً لموقفهم المذهبى والسياسى ، لذلك نراهم يوجزون ويبخلون بالأعلام ، فلا نعثر فى كل ما كتبوا إلا على أسماء الأنبياء والحكماء بارزة جلية ، وأما من سواهم فقلما يذكرونهم بأسمائهم . ولو تتبّعنا أقوالهم لظهر لنا حرصهم على الدعوة لعلى وآل البيت عامة . فهم عندما يعرضون لأتباع صاحب الشريعة يقسمونهم إلى ثمانى طبقات ، يجعلون

---

(١) الرسائل : ج ١ ، ص ١٣٢ — ١٨٠

فى الأولى منها : « قراء تنزيله وكتبته وحفاظ ألفاظه ومعلميها لمن بعدهم من ذراريهم ليؤدوا إلى من بعدهم من أتباعهم ما أخذوا عمن قبلهم [١] » ، ويتجلى من كلامهم أنهم يقصدون به علياً دون سواه ، لأنه من قراء التنزيل والكتبة والحفاظ . ويتضح كلامهم عندما يجعلون هذا العلم وراثياً فى ذرارى هؤلاء الحفاظ ، أى فى أبناء على . وإذا أرادوا أن يذكروا فى مكان آخر الراسخين فى العلوم الإلهية والمعارف الربانية ، الواقفين على أسرار الناموس يقولون إنهم المهديون والخلفاء الراشدون الذين يقضون بالحق وبه يعدلون ، فيقدمون المهديين على الراشدين ، ولا يشيرون إلى أحد من الخلفاء الأمويين أو العباسيين [٢] . ويخصون عمر بن الخطاب بالذكر فى أحد مقاطعهم لحضه الناس على قراءة سور الأنفال والتوبة والأحزاب بنوع خاص ، وهى سور تفصل سمات المؤمنين المخصلين الصادقين وأعمالهم وأخلاقهم [٣] . ثم يتضح الميل الشيعى عندما يعرضون للحسد ، وللدور الذى قام به النبى فى تأليف القلوب ، فعلّم الناس وأرشدهم ، وأخذهم بالملاطفة حتى فهموا الدين . ثم ينتقلون فجأة إلى الكلام على الأمة التى بعث فيها النبى وإلى الحالة التى تنتهى إليها من الفوضى والاضطراب إذا تركت وصية نبيها ، واختلفت من بعده ، واعتمدت رأيها . وذلك إذا أرادت أن تملك عليها ملكاً ، وتنصب خليفة بغير معرفة من الرسول ولا وصية منه ، ولا إرشاد فإنما مثلها ، كما يقول الإخوان ، كمثل الغربان والبزاة [٤] ، وهو مثل صريح

---

(١) الرسائل : ج ١ ، ص ٢٥

(٢) الرسائل : ج ١ ، ص ٢٥١

(٣) الرسائل : ج ١ ، ص ٢٧٠

(٤) يتلخص بأنه كان للغربان ملك منهم ، رحيم بهم ، محسن إليهم ، فمات فى أحد الأيام ، فاختلفوا فيمن يملكونه عليهم من بعده ، وتحاسدوا وخافوا أن تقع بينهم العداوة ، فاجتمعوا وتشاوروا وقالوا : لا نرضى بأحد من أهل الملك الذى كان فينا مخافة أن يعتقد أن الملك إنما ناله وارثاً عن أبيه وأقاربه فيسومنا العذاب . وقال أحدهم بترئيس رجل من أهل الورع والتقى . وكان بالقرب منهم باز قد كبر وخرف وضعفت قوته عن الصيد ، وتناثر ريشه من قلة المعيشة فأقبل يكبر ويسبح ويظهر التخضع والتورع ، فنادوا به خليفة . فلما تمكن منهم قوى جسمه ونبت ريشه وعادت إليه قوته ، فكان يأتى كل يوم بعض الغربان فيخرج عيونها ويأكل أدمغتها ، وأقام على ذلك مدة ، فلما دنت وفاته عمد إلى بعض أبناء جنسه فملكه عليهم فكان أشد منه ، وأعظم بلية ، فندم الغربان على صنيعهم ، وكان ذلك سبب الخلاف . (الرسائل : ج ٣ ، ص ١٧٣ — ١٧٤)

لما يرمزون إليه ، يبينون فيه أن قيام الخلافة على « الشورى » يخالف إرادة صاحب الرسالة ، وأن النبي أوصى بمن يخلفه . وكرروا الألفاظ التى نجدها فى كتب الشيعة وعلى ألسنتهم من « وصية النبى » و « وصية منه وإرشاد » ، اعتقاداً منهم أن الرسول اختاره ليكون خلفاً له فى نشر الدعوة ، وفى إرشاد المسلمين ، وأنه لا بد لكل زمان من إمام يرجع إليه الناس فى تفهم الأحكام. ولعلنا فطنّا إلى شخصية البازى العجوز الذى اختير ليكون على الغربان ملكاً ، وإلى الغربان الذين أبوا أن يكون الملك فى آل البيت ، والغراب الذى أشار باختيار الخليفة من أهل الورع والدين . فإن هذه الرموز تعنى أشخاصاً معروفين فى التاريخ لسنا بحاجة إلى ذكر أسمائهم ، كما أن الإخوان لم يصرحوا بها ، بعد أن رسموا أصحابها بهذا الجلاء والوضوح ، ونبهوا القارئ إلى أنهم إنما يأتون بهذا المثل ليعتبر به الناس فى أحوال من مضى .

غير أن الإخوان يلقون القناع عن وجوههم فى القسم الرابع من مجموعة الرسائل العامة فيتحول الظن إلى يقين ، والحدس إلى حقيقة . ويتجلى ميلهم العلوى فى كثير من المقاطع ، إذ يصرحون بأسماء بعض الأئمة ، ويحتجّون بكلام الحسين [١] ، ويعرضون لصفين فى كلامهم على الأنبياء ، ونشر دعوتهم فيأتى نصهم فى غير موضعه لتداعى لفظتى الحكم والتحكيم [٢] كما أنهم يشيرون فى مكان آخر إلى كربلاء عند ذكرهم تعريض الأنبياء أجسامهم للهلاك فى سبيل رسالتهم ، فيقولون : « ومما يدل على أن أهل بيت نبينا عليهم السلام كانوا يرون هذا الرأى تسليمهم أجسامهم إلى القتل يوم كربلاء . . . وصبرهم على العطش والطعن والضرب حتى فارقت نفوسهم أجسادهم ، ورفعت إلى ملكوت السماء ، ولقوا آباءهم الطاهرين محمداً وعلياً والمهاجرين والأنصار [٣] » . وهكذا نرى ذكر على وآل البيت والحسين بنوع خاص يتردد فى كتاباتهم إلى أن يصلوا إلى مقطع من تلك الرسائل فيعلنوا بدون التواء انتماءهم إلى العلوية ،

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٧١

(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ٨٥

(٣) الرسائل : ج ٤ ، ص ٩٨

ويأخذوا بنقد جماعات شريرة من الناس جعلوا التشيع ستراً لهم [١]. وإذا خاطب الإخوان الشيعة صرحوا بنسبهم، وأظهروا ما أخفوه تقية، وكشفوا عن عصبيتهم بكلام لا يحتمل التأويل والمجاز، كقولهم فى مخاطبة أحد المتشيعين: «ومما يجمعنا وإياك أيها الأخ البار الرحيم محبّةُ نبينا عليه السلام وأهل بيته الطاهرين، وولايةُ أمير المؤمنين على بن أبى طالب خير الوصيين، صلوات الله عليهم أجمعين [٢]، ويبنون ميلهم العلوى على أن النبى وحده يعين خليفته من يراه حائزاً الفضائل الضرورية لإقامة أمور الدنيا والدين. ومثل المستحق لخلافة النبى كمثل تلميذ الحكيم الذى رافقه فى حياته، وتعلّم منه، يجيب عما يسأل عنه من سؤالات الحكمة [٣].

ب – الهدف السياسى

إلى جانب الميل العلوى نستشف فى الرسائل نقمة على السلطة الشرعية، ومسعى للثورة عليها، والتمهيد لانقلاب يعدل الأوضاع والنظم. غير أن النصوص لا توضح هذا الإحساس بجلاء، وإنما تترك القارئ أو الباحث فى حيرة من أمره، لا يقطع ولا ينكر. ونكتفى نحن فى هذه العجالة بذكر ما نرى فيه لحناً لهذه الغاية الخفية. من ذلك أن فى غضون مباحثهم العملية التى لا صلة لها بالموضوعات الاجتماعية والمدنية مقاطع تعرض للملوك والسلاطين الجائرين، كأنها تشير إلى الإمارات التى انتشرت آنذاك، أو تعنى سلطاناً أو ملكاً معروفاً فى ذلك العصر [٤]. وهى مقاطع يندر ورود أمثالها فى النصوص العربية الأخرى لما تحمله فى طياتها من شكوى جلية من أصحاب السلطة، ودعوة مبطنة للثورة عليهم. ويزداد الإخوان جرأة فيتنبأون بانتهاء الدور الحاضر، لأن النجوم والسيارات وانتقالها فى البروج تدل على مثل هذا الانقلاب. ولقد أشاروا إلى ذلك صراحة فى الرسالة الجامعة إذ قرنوا ما يجرى على الأرض من

---

(١) الرسائل: ج ٤، ص ١٩٩

(٢) الرسائل: ج ٤، ص ٢٤٢

(٣) الرسالة الجامعة: ج ١، ص ٢٨٠ – ٢٨١

(٤) الرسائل: ج ٣، ص ١٧٧، ج ٤، ص ٣٤

الأحداث السياسية بما يتم فى السموات من تقارب السيارات وتباعدها . وأوضحوا أن هناك ثلاثة أنواع من القرانات يدل كل واحد منها على وجه من وجوه التبديل والانقلاب على الأرض ، فمن عرفها تنبأ بالمقبل من الأحداث : أولها القران الأعظم الذى يقترن فيه زحل[1] والمشترى[2] فى أول المثلثات النارية إلى حين عودتهما إليها ، ويتفق ذلك بعد تسعمائة وستين سنة . فإذا حدث الأمر أصاب الأرض انقلاب عظيم أدّى إلى بعث رسول جديد ، ونزول وحى مستحدث ، وتقلّب أحوال الملك والنواميس ، ونشوء دين جديد ، وسفك دماء ، وحدوث زلازل .أما الثانى فهو القران الأوسط الذى يتم عندما ينتقل هذان الكوكبان من مثلث إلى آخر . ويتم هذا الأمر فى مائتين وأربعين سنة . وعند ذلك يحدث تبديل للملوك ، وينتقل السلطان من دولة إلى أخرى ، ومن قوم إلى آخر ، ومن بيت إلى بيت ، ويظهر الفساد والعبث . أما القران الثالث الكائن فى كل عشرين سنة فيوجب التغير فى الأسعار والأحوال ، ويتمّ عند انتقال هذين الكوكبين من المثلثات النارية إلى المثلثات الترابية . ومن هذه المبادئ العامة التى يقرّها الإخوان يتبين لنا أنهم كانوا بانتظار القران الأوسط ، وما يستتبعه من انقلاب فى الحكم وانهيار دولة ، وقيام دولة جديدة ، تنتمى إلى جنس آخر . وإذا فرضنا أنهم يعنون بذلك حكم العباسيين ، وقد بدأ عام ١٣٢ للهجرة ، وأضفنا ٢٤٠ عاماً يعتبرونها ضرورية لاكتمال القران الأوسط ، تبيّن لنا أنهم عينوا تاريخاً لحدوث هذه الثورة الانقلابية حول عام ٣٧٢ هـ ، وهو تاريخ يتأخر قليلا عن ابتداء الدعوة[3] ، ويتفق مع ما تتطلبه من زمن لنشرها وتعميمها فى مختلف البلدان . ونحن واجدون أيضاً فى الرسالة الجامعة إشارة إلى أن الدور إذا بلغ العقرب[4] — ومدة ذلك ثلاثمائة وثلاثون سنة وأربعة أشهر — يحلّ بالعالم مصائب لا تحصى ، وتفسد

---

(١) زحل : نجم من السيارات تحيط به منطقة نيرة .

(٢) المشترى : نجم من السيارات .

(٣) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٣٢٣ – ٣٢٤

(٤) العقرب : برج فى السماء .

أحوال الملوك وتعم الحروب ، وتسقط هيبة السلطان الذى فى يده زمام الشريعة ، ويطمع سائر الملوك به ، ويصير الحكم عند ذلك لدولة إخوان الصفاء . وتكون مدة تسلطهم مائة وتسعاً وخمسين سنة[١] . وذلك «لأن قوة أهل الشر قد تناهت وكثرت أفعالهم فى العالم فى هذا الزمن ، وليس بعد التناهى فى الزيادة إلا الانحطاط والنقصان . والملك والدولة ينتقلان فى كل دهر وزمان ودور وقران من أمة إلى أمة ، ومن أهل بيت إلى أهل بيت ، ومن بلد إلى أهل بلد ، وإن دولة أهل الخير قد أخذت بالظهور لأنها تبدأ بأقوام أخيار فضلاء يجتمعون فى بلد ، ويتفقون على رأى واحد ودين واحد ، ومذهب واحد . ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون ، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضاً ، ويكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم ، وكنفس واحدة فى جميع تدابيرهم[٢] » . ويبعثون الدّعاة مبشرين باستئناف دور الكشف ، بعد عهد الخفاء والتستر ، و « الظهور وانجلاء الغمة عن العباد بانتقال القران من برج مثلثات النيران إلى برج مثلثات النبات والحيوان فى الدور العاشر الموافق لبيت السلطان وظهور الأعلام[٣] » . ويوجهون الرسل لتنبيه الصحب والأتباع قرب مجىء اليوم ، وظهور الأمر ، ويطلبون من خاصتهم الاتصال بالأمراء والقواد الموالين لهم لإطلاعهم على ما يتمّ فى مقبل الأيام من ثورات ، وما تؤول إليه الحوادث من تطور ليكون هؤلاء الأمراء والقواد على استعداد عند وقوع المنتظر من نصرة الدين وفتح البلاد والاستيلاء على القلاع والبقاع[٤] . وقد استدلوا بعلومهم الخاصة ، ومعرفتهم بأسرار الكواكب والسيارات على « وقوع حادث عجيب فيه صلاح الدين والدنيا ، وهو تجديد ملك فى المملكة ، وانتقال الدولة من أمة إلى أمة » ، لأن لذلك دلائل بينة ، وعلامات واضحة ، عرفوها بالزجر[٥] والفأل[٦]

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ١٢٦ – ١٣١

(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٣٥

(٣) الرسائل : ج ٤ ، ص ١٩٨

(٤) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٣٧

(٥) الزجر : العيافة وهو ضرب من التكهن . والزجر للطير : التيمن بسنوحها والتشاؤم ببروحها .

(٦) الفأل : ضد الطيرة وهى فيما يكره فى حين أن الفأل هو فيما يستحب .

والكهانة(١) والفراسة(٢) ودلائل المتحركات من النجوم والمنامات ، مما تدل عليه من الكائنات قبل وقوعها . حتى إنهم عرفوا صاحب الأمر بصفاته ، والعام والشهر اللذين يقع فيهما الحادث(٣) . ولعل الإخوان فكروا باستعمال القوة فى نشر مبدئهم وسلطانهم بين الناس ، ذلك ما تنبه إليه القصّة التى ذكروها عند الكلام على ظهور دعوتهم وذيوعها شيئاً فشيئاً بين الناس . يرمزون إلى مؤسس الجمعية بحكيم طبيب دخل مدينة من المدن ، فرأى جميع أهلها مصابين بمرض ، ولكنهم لا يشعرون به ، ولا ينتبهون إليه لأنه فى مجموعهم . فأدرك أنه إذا كاشفهم بالحقيقة لا يستمعون إليه ، ولا يقبلون نصيحته ، بل ربما ناصبوه العداء ، فاحتال بأن طلب رجلا مصاباً من فضلائهم فأقنعه بتعاطى الدواء ، فشفى مما به ، وأحسّ براحة فى حواسه . فاتفقا على الاتصال بآخرين من ذوى الحكمة لإقناعهم بالاستشفاء حتى زاد عدد الأصحّاء ، فتفرقوا فى المدينة يداوون الناس واحداً بعد واحد فى السرّ حتى أبرأوا جماعة كبيرة ، وتعدد أنصارهم فظهروا للناس وكاشفوهم بالمعالجة وكابروهم بالمداواة قهراً . وكانوا يلقون الرجل فتأخذ جماعة منهم بيديه ، وجماعة برجليه ويسعّطه(٤) آخرون كرهاً ، ويسقونه جبراً ، حتى شفوا أهل المدينة كلهم . ولعل هذا الرمز يمثل

---

(١) الكهانة : تعاطى الخبر عن الكائنات فى مستقبل الزمان وادعاء معرفة الأسرار . وكانت العرب تسمى كل من يتعاطى علماً دقيقاً كاهناً ومنهم من كان يسمى المنجم والطبيب كاهناً . ومن أمثلة جمعهم بين المنجم والطبيب قول الشاعر :

زعم المنجم والطبيب كلاهما أن لا معاد فقلت ذاك إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالوبال عليكما

(٢) الفراسة : بفتح الفاء العلم بركوب الخيل وركضها من الفروسية . والفراسة بكسر الفاء إدراك الباطن من نظر الظاهر .

(٣) لهم فى معرفة الحروب وأوقاتها ، وأمكنتها ، مقطع أوردوه فى الرسالة الحادية عشرة من العلوم الناموسية والشرعية ، لا بأس بأن نذكر قليلا منه استطرافاً لقولهم وإبانة لمذهبهم . يقولون : « إذا أردت أن تعلم هل فى السنة التى أنت فيها أو المستقبلة ، إن كنت فى آخر الماضية ، حرب ، فانظر إلى المريخ فى تلك السنة ، فإن كان فى الأوتاد ، فإنه يكون ، وإن كان ساقطاً فلا يكون . وإذا أردت معرفة متى تكون الحرب وأين ، فخذ درجة المريخ إلى درجة المشترى ثم القه من الطالع ، فحيث نفد الحساب فى ذلك الحد تكون الحرب إلخ . . (الرسائل : ج ٤ ، ص ٧٧)

(٤) سعطه وأسعطه الدواء : أدخله فى أنفه ومنه قولهم : أسعطه علماً : إذا بالغ فى إفهامه .

الأسلوب الذى اتبعه الإخوان فى بثّ دعوتهم، وما انتووه من مكاشفة الناس عندما يزداد عددهم ويصبحون كثرة فى بيئتهم.

من المألوف فى العصور الإسلامية أن تظهر الجماعات الداعية إلى الثورة السياسية، فتتستر بالمذهب الشيعى فى سبيل نشر رسالتها، وتأليب رجالها، إلى أن يستتب لها الأمر فتسفر عن حقيقة أمرها. وذلك لأن هذه الجماعات انتشرت غالباً فى بيئات شيعية متمسكة بعقيدتها، تعوّدت على تعاقب السنين أن تخرج حيناً بعد آخر على السلطان السائد، فتهرق دماءها فى سبيل فكرتها، ثم يخلد الناجون إلى ذل الهوان وألم الخيبة إلى أن يظهر جيل جديد من أبناء الشهداء فيعيدوا الكرة، وتتعدد المآسى. ولقد كان الوتر الشيعى من أرهف الأوتار الإسلامية حساسية، وأفاد منظمو الحركات السياسية منه فى بث دعواتهم وتأليب الناس حولهم، معتمدين نظرية الأبوة الروحانية لإقصاء آل البيت عند بلوغ الأهداف.

ج – معالم الوثنية فى مذهبهم

فى وسعنا القول إن إخوان الصفاء علويون وباطنيون[١] وإسماعيليون[٢] ومعتزلة[٣] وفيثاغوريون[٤] وأفلوطينيون[٥] ومجوس[٦]، لأن لكل هذه النزعات

---

(١) الباطنية: اسم يطلق على فرق كثيرة يأخذ أصحابها بالمعنى الباطن للكتاب ويجعلون لكل تنزيل تأويلا ولكل فرقة منها مذهبها الخاص. وأهم تلك الفرق الخرمية والقرامطة والإسماعيلية. ولقد أطلقت التسمية أيضاً على فرق ليست من المسلمين كالمزدكية كما أطلقت كذلك على بعض الصوفية.

(٢) الإسماعيلية: فرقة من الشيعة سميت بهذا الاسم لأنها وقفت بسلسلة الإمامة عند إسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق الإمام السادس. وتوفى إسماعيل فى المدينة عام ١٤٣ هـ قبل وفاة أبيه بخمسة أعوام ودفن فى مقبرة بقيع الغرقد غير أن أتباعه يزعمون أنه كان حياً بعد وفاة أبيه بخمس سنوات. ومن عقائد الإسماعيلية أن الجنة رمز إلى حالة النفس التى حصلت العلم الكامل وأن الجحيم رمز إلى حالة الجهالة وأن النفس تعود ثانية إلى الأرض بالتناسخ.

(٣) المعتزلة: اسم لفرقة من المتكلمين فى الإسلام أسسها واصل بن عطاء الذى كان يختلف إلى حلقة الحسن البصرى وعارضه فى مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن ولا هو كافر بل فى منزلة بين المنزلتين. وأصول المعتزلة خمسة: العدل، والتوحيد، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ومن أشهرهم النظام والعلاف والجبائى والجاحظ. ولقد ناصرهم المأمون فى القول بخلق القرآن وجعل مذهبهم مذهب الدولة.

أثراً بارزاً فى الرسائل ، ولأن هذا الخليط يتجاور فيها على غير وفاق ، ويتلاحق على غير اتساق . وهم فى الواقع ليسوا شيئاً معيناً بذاته ، بل هم كل شىء . تعاليمهم كقوس قزح من حيث تعدد الألوان . فيها ما تشاء من أقوال الفيثاغوريين والأكاديميين [١] والمشائين [٢] والإسكندريين [٣] والرسل والأنبياء وأصحاب الفرق من أتباعهم . ونحن واجدون فى نصوصهم فقرات كثيرة ، ولكنها مموهة ، تشير إلى أن فى قرارة نفوسهم ميلا إلى الوثنية . غير أن هذه الوثنية غامضة الملامح ، ليست بالإغريقية الخالصة ، ولا بالبابلية ، ولا بالأشورية ، وليست مزدكية [٤] ولا مانوية [٥] ، وإنما هى خليط من جميع هذه العناصر ، معدلة هنا ، مخففة هناك ، مكثفة هنالك ، بحيث يضيع الدارس فى تعدد الأصداء

---

(٤) انظر الهامش فى صفحة ١٦

(٥) الأفلوطينيون : نسبة إلى أفلوطين (٢٠٥ — ٢٧٠ بعد الميلاد) الذى ولد بمصر وتعلم بالإسكندرية ثم أنشأ مدرسة فى رومة . وهو آخر فيلسوف عظيم فى العصر القديم وفلسفته قريبة من الدين . ويعتقد أن الله أو الواحد فى قمة الوجود وعنه صدر العقل ثم النفس الكلية . وله كتاب اسمه التاسوعات نقل إلى العربية ونسب قسم منه خطأ إلى أرسطو باسم الأثولوجيا أو الربوبية ، ويعرف مذهبه فى الفلسفة بالفيض أو الصدور . ومن تلامذته الذين دونوا سيرته فرفريوس الصورى .

(٦) انظر الهامش فى صفحة ١٦

(١) الأكاديميون : هم أتباع أكاديمية أفلاطون التى أنشأها فى حياته . وظلت المدرسة تقوم بتعليم فلسفة أفلاطون وبخاصة العلم الرياضى حتى أغلقها الإمبراطور جستنيان سنة ٥٢٧ بعد الميلاد .

(٢) انظر الهامش فى صفحة ١٦

(٣) الإسكندريون : اسم للفلاسفة الدينيين الذين ظهروا فى الإسكندرية منذ القرن الأول حتى الرابع بعد الميلاد من مثل فيلوف اليهودى وأوريجين المسيحى وأفلوطين صاحب الأفلاطونية الحديثة .

(٤) المزدكية : مذهب ينسب إلى مزدك الذى ظهر فى أيام الملك قباذ والد أنو شروان . وكان مزدك ينادى بالإباحية فى الأموال والنساء والانهماك فى تناول اللذات . وانتشر مذهبه وتبعه خلق كثير إلى أن قتله أنو شروان هو وأصحابه .

(٥) المانوية : مذهب أصحاب مانى الذى ظهر فى عهد سابور بن أردشير (القرن الثالث بعد الميلاد) وكان مانى راهباً بحران متفلسفاً ومذهبه مزيج من المجوسية والنصرانية وقال بالتناسخ . قال فى بعض كتبه إن الأرواح التى تفارق الأجسام على نوعين : أرواح الصديقين وأرواح أهل الضلالة . فالأولى إذا فارقت سرت فى عمود الصبح إلى النور الذى فوق الفلك فبقيت فى ذلك العالم على السرور الدائم . والأرواح الثانية تتناسخ فى أجسام الحيوانات إلى أن تصفو من شوائب الظلمة ثم تلحق بالنور العالى .

واختلاف الأهواء . نكتفى فى بحثنا الموجز هذا بذكر بعض المعالم التى تشير إلى هذا الميل الخفى .

من ذلك أنهم لا يأنفون من التمثل بآلهة الزرادشتيين [١] فى معرض ذكرهم الأنبياء والرسل وفى كلامهم على الجنة والنار والحشر والحساب ، فيجعلون اليزدان وأهرمن وعاذيمون إلى جانب إبرهيم الخليل وموسى والمسيح ومحمد [٢] . وفى إقدامهم على مثل هذا الأمر جرأة غريبة يبديها الإخوان فى البيئة الإسلامية التى حاربت المجوسية والوثنية على جميع أنواعها ، ولم تسمح لها بالوجود والحياة إلى جانب الديانات الموحدة . وفى الرسائل إشارات جلية إلى وجود عنصرى الشر والخير اللذين قامت عليهما الزرادشتية ، يعرضون لهما فى الرسالة الجامعة حيث يذكرون أن إبليس ، أو إله الشر ، يغوى أبناء آدم ، ويلقى بينهم الشرور والعداوة ، ويعلمهم المكر وقول الزور . ويأتى الأنبياء الأرض لتحذيرهم من غوايته إلى أن يزول سلطان الشر ، وتنكشف الحقائق ، ويموت الشيطان من شدة الحزن والأسف ، ويهلك حزبه ، فلا يبقى لهم أثر [٣] . ويتجلى تأييدهم المجوسية فى مناسبة أخرى ، عندما يعرضون لأثر الأديان فى تكوّن الأخلاق الفردية . ويوازنون بين المجوسية واليهودية فيفضلون الأولى على الثانية خلال بحث فى الأخلاق . يتمثلون على رأيهم برجلين تصاحبا فى بعض الأسفار ، وكان أحدهما مجوسيًّا ، وثانيهما يهوديًّا كما سنرى فى قسم الأخلاقيات [٤] . وينتهزون هذه الفرصة السانحة ليمجدوا المجوسية ، ويجعلوها من أفضل الأديان التى تدعو إلى عمل الخير وحسن المعاملة للموافقين والمخالفين ، رغم ما كان عليه موقف الجماعة

---

(١) الزرادشتيون : أتباع زرادشت وتاريخه غير معروف على التحقيق . والأرجح أنه عاش فى القرن السابع قبل الميلاد . وتدور حول حياته قصص كثيرة . عرفه اليونان وذكروه فى تواريخهم وعرفه العرب وسموه الحكيم أو النبى الذى دعا الملك كشتاسف إلى عبادة الله والكفر بالشيطان (أهرمن) والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعنده أن يزدان الإله الأكبر وهو خالق النور والظلمة ومن امتزاجهما نشأ الشر ولكن الخير سوف ينتصر فى النهاية .

(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ٨٥ – ٨٦

(٣) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٢٤٨ – ٢٥٠

(٤) الرسائل : ج ١ ، ص ٢٣٧

المسلمة من المجوسية التى رمزت إلى الوثنية الصريحة فى ذلك العهد . وقد اتهم رأسَ الجمعية المقدسى أهلُ عصره وعارفوه بإهماله شعائر الدين الإسلامى ، ووجّه إليه أحد المتدينين نقداً جارحاً جاء فيه : « فإنك من أهل الإسلام بالهدى والجِبْلة[١] والمنشأ والوراثة ، فما بالنا لا نرى واحداً منكم يقوم بأركان الدين ، ويتقيد بالكتاب والسُّنّة ، ويراعى معالم الفريضة ووظائف النافلة ؟[٢] » ومن اتهمه مع رفاقه هذا الاتهام قد عرفهم عن كثب ، ووقف على جلية أعمالهم ، فما بدا له منهم أثرٌ لتدين إسلامى . ولقد تأوّلوا ، كما تبين لنا من فقرة أخرى ، الشعائر الإسلامية تأوّلا رمزياً ففهموا من الحج إلى مكة والقيام بالمناسك طواف الإنسان على هذه الأرض[٣] . وفى شهادة معاصريهم ، وهى قليلة نادرة ، حجة دامغة على النهج الذى اتبعوه فى حياتهم العملية من حيث امتناعهم عن التقيد بشعائر بيئتهم الإسلامية .

نهتدى فى مضطرب نصوصهم إلى أنهم ميزوا بين الرسل والأنبياء ، وأن عدد الأولين غير محدود ، يختلف من حيث الكثرة والقلة باختلاف المقاطع التى يستدلون بها . أما الأنبياء فلا يتعدى عددهم السبعة . أقبل منهم ستة هم : آدم ونوح وإبرهيم وموسى وعيسى ومحمد ، أما السابع فهو نبيهم المنتظر . وقد بشر السابقون بمجيئه ، ومهدوا له الطريق بما نشروه من شرائع ، واختطوه من سنن أخلاقية ، وأظهروا جلاله وعظمته . وهو الغاية التى ينتهى إليها الكمال . يستمدّ الستة الأولون منه أنوارهم وحقائقهم . وهو الباعث فى العالم روح الحياة وهو شبيه بالشمس ، وقد يكون حالا فى الشمس نفسها[٤] . ينزل فى الفلك المتوسط بين أفلاك الكواكب ، فيدرك الماضى والحاضر والمستقبل ، ويتوسط بين عالم الستر وعالم الكشف ، فأهل دور الستر هم أمم المتقدمين بين يديه ، وأهل الكشف عن يمينه . فإذا أقبل على العالم يأتى بالرحمة للخلق ، والنقلة لهم من الحال الأدنى إلى الحال الأفضل ، ويهلك بمجيئه من خالف

---

(١) الجبلة : الخلقة والطبيعة . يقال : جبلته على الخير ، أى طبيعته صالحة .

(٢) الإمتاع والمؤانسة : ج ٢ ، ص ١٤

(٣) الرسائل : ج ٢ ، ص ١١٩

(٤) الشمس هى وجه النفس الكلية (الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٥٢٩)

السعادة الآتية على يديه واختار الشقاء . ومن الملاحظ أن هذه الفكرة ، وإن شابهت نظرية المهدى الذى يقبل فى أحد الأيام فيقضى على الشرور والآثام ، وينشر العدل والرحمة ، ويقيم أتباعه فى سعادة دائمة ، هى إلى المبدأ الزرادشتى أقرب ، لأن مجىء الأنبياء الستة السابقين ليس إلا مقدمة لقدوم السابع الذى يرمز إلى إله الخير ، وظهور دور جديد على الأرض . ومما لا شك فيه أن هذه الآراء قد وردت فى نصوصهم غامضة مضطربة طلباً للتمويه والتقية ، أو نتيجة لما دخلها من عناصر غريبة متعددة ، بعضها مجوسى وبعضها الآخر من صنع الغلاة فى الإسلام . وذلك أن دور المهدى يقتصر على الأرض ومخلوقاتها ، أما النبى السابع أو الرئيس الذى يسلم الإخوان بمجيئه فإن سلطته تتصل بأهل الزمان جميعاً ، ويصير العالم بأسره له جسما وآلة وجنوداً وأبداناً ، ويكون هو بمنزلة الرأس ، أى العقل ، ومن يخلفه من أهله وأصحابه ومن قبل منه ما ألقاه إليه كمثل الأعضاء الفاضلة . وهو بالذات يشبه النفس الكلية التى أعطت كل حى حياته ، وأدارت الأفلاك وكونت الهيولى الأولى وما نتج عنها من كائنات ومولودات [1] .

وكل ما يقولونه فى هذا الباب هو فى غاية الغموض لما يترتب عليه من تعيين لموقفهم من الإسلام والديانات الشائعة فى عصرهم . وليس من الميسور فى الوقت الحاضر استنتاج حقائق واضحة إلا بعد العثور على نصوص إضافية من صنع الإخوان ومقارنتها بما لدينا ، وعند ذلك يتاح لنا توضيح شخصية النبى السابع أو الرئيس كما يسمونه .

من الآراء الطاغية فى الرسائل مذهبهم فى الكواكب والأفلاك وأثرها فى «عالم الكون والفساد » ، يوردون فصولا متعددة ، وشذرات متفرقة يؤيدون بها هذا الأثر ، ويفصلونه ويبينون أن كل ما يحدث فى العالم الأرضى ليس إلا بتأثيرها ومفعولها . ولا يفوتهم أحياناً القول ، على سبيل التمويه والتقية ، إن الله هو الذى قدر مصير الكليات والجزئيات ، فى حين أن رأيهم الحقيقى جلى يستشفه كل قارئ فى أغلب الرسائل . فهم يعتقدون أن هذه الكواكب هى السبب المباشر فى التكوّن الطبيعى وظهور المادة والصورة وتشكلهما بالهيئات الجمادية والنباتية

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٧٠١ — ٧١٠

والحيوانية والإنسانية ، وظهور الفردية فى الأنواع . وهى بالإضافة إلى كل ذلك سبب ما يصيب الأجسام فوق سطح الأرض من علل وأمراض واضطراب فى تناسقها العضوى ، وهى مصدر الخلق الطيب والسيئ ، ومبعث الحياة والموت ، وهى دلائل بينة فى السماء يستنتج منها الراسخون فى العلم مصير الكائنات وأسرار الانقلابات . ليس لأنها إشارات خفية ترسمها العلة الأولى فى السماء ، بل لأنها العلة المباشرة لكل مايتكون وينحل ويفسد . وفى رأيهم أن الأشخاص الفلكية أحياء ناطقون ، وهم ملائكة الله — العلة الأولى — وملوك أفلاكه وسكان سمواته . عرفوا كل ذلك — كما يقولون — بعد النظر فى العلوم الإلهية وأحكامها(١) ويزيدون موضّحين : «فعلم النجوم وأدلتها صحيحة حق. وهى الأشخاص الفلكية التى نصبها البارى تعالى وأجراها مجاريها ، وإن كان المنجمون يخطئون فى بعض استدلالاتهم ، أو فى أكثرها ، فلا تبطل صناعة علم النجوم من أجل ذلك ، وهو علم جعله الله تعالى معجزة إدريس النبى (٢)» . وبعد أن كان قولهم فى تأثير النجوم والسيارات على شىء من الغموض فى الرسائل العامة ، اتضح بعض الشىء فى الرسالة الجامعة ، فإذا بهم يكادون ينطقون بحرفية ما تعتقده الصابئة الحرانية(٣) من حيث اختصاص كل كوكب بفئة من الناس ، وبنوع خاص من المطالب والأمانى الإنسانية . فالشمس تختص بمواليد الملوك والرؤساء ومن يصحبهم ، والمشترى يعنى بمواليد الأنبياء وأصحاب الناموس والدين ، وعطارد(٤) يتعلق بمواليد الكتاب وأصحاب الصنائع ، وتشاركه بقيّة الكواكب فى ذلك(٥) . والزُّهَرة(٦) تتعلق بالفتيان وأصحاب الطرب والجوارى ، وإلى

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٣٧

(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ٣٨

(٣) الصابئة الحرانية : الصابئة هم الذين يعتقدون بوجود إله واحد ويسلمون إلى جانب ذلك بوجود متوسطات هى الكواكب تقرب عبادتها من الله . وهم طوائف منهم الصابئة الذين بحران وكانوا يكتمون أديانهم ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم ويقال إن حمدان قرمط داعية الباطنية بعد ميمون ابن ديصان كان من الصابئة الحرانية .

(٤) عطارد : نجم من السيارات

(٥) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٤١٦ — ٤١٧

(٦) الزهرة : كوكب من السيارات وهى عند الأقدمين إلهة الجمال .

عقلانية أم Premodernity in Belief

المرّيخ[١] يعهد فى الأنفس الشريرة[٢]. وقد كتبوا أصلا هذه الأقوال بالرموز التى نشير إليها فى صفحات تالية لكتمانها عمن ليس عضواً فى الجمعية، أو لا يحق له الاطلاع عليها[٣] . . . ونجد فى الرسائل ذكراً للأساليب المتبعة لنيل نعم الأشخاص الفلكية والدعوات التى يبتهلون بها ، وإشارة إلى الأثواب التى تلبس عند العبادة ، والقرابين التى تقدّم فى هياكلها . وكلّ هذا ترديد للمأثور عن الصابئة الحرانية التى تعبّدت للعلة الأولى ثم للعقل الكلى وزحل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر ، وبنت لكلّ منها هيكلا خاصّاً ، وقرّرت له شعائر معينة ، ونأتى على سبيل المثال بما درجت عليه الصابئة فى عبادتها الشمس فنرى أن الهيكل الذى خصّ بها هو مربع الشكل ، مذهّب اللون ، دهنت جدرانه باللون الأصفر ، وأن ستوره من الحرير الأصفر المذهّب . وفى وسط الهيكل مقعد فوق ست درجات ، عليه صنمٌ من ذهب مقلّد بالجوهر متوّج بتاج الملك وتحته على كل درجة أصنامٌ تتحلّق[٤] حوله مختلفة فى مادتها ما بين خشب وحجر ومعدن مركب . وأكثرها تماثيل ملوك ماتوا فأبقوا لهم أمثلة يذكرون بها . وإذا شاء الكاهن أن يدعو الشمس تحلى بالتاج ، وارتدى الحلل النفيسة ، ثم دخل الهيكل وبيده مجامر العود والندّ[٥] ، وضحّى له ما يشبهه من الحيوان ، وقال : « مسبّحٌ أنت أيها النيّر الأعظم ، حارقُ النور المحترق به . أنت الربّ النورانى ذو الحيلة السارية ، والنفس الكلية ، والنور الباهر . قدّمنا إليك هذه الضحية المختارة الشبيهة بك فتقبّلها منا ، وارزقنا من خيرك وأعذنا من شرّك » . ونحن واجدون فى الرسائل الطقوس والرموز نفسها دون زيادة ولا نقصان[٦] . فالشمس مختصّة بالملوك ، وبكلّ ما علا وارتفع قدره ، وعظم ذكره من النبات والمعادن . واللباس الخاص بها الديباج

---

(١) المريخ : نجم من السيارات

(٢) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٦٩٠

(٣) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٦٨٨

(٤) تحلق القوم : جلسوا حلقة . وتحلق القمر : صارت حوله دائرة .

(٥) العود والند : نوعان من الطيب يتبخر بهما .

(٦) الرسائل : ج ٤ ، ص ٣٣٥ وما بعدها .

الأصفر ، وحليها الذهب الأحمر . وتطول هذه الموازنة إذا أردنا تتبعها إلى النهاية ، فى حين أن سياق البحث يقضى بالإيجاز الكلى والإشارة العابرة . وقيام الإخوان بالتقرب من الكواكب يفترض أمرين ينكرهما الإسلام : أولهما الاعتقاد بأن هذه العوالم السابحة فى الفضاء تتصف بالألوهية ، أو بما يشبه الألوهية ، وفى ذلك إنكار للتوحيد الإسلامى الذى يأبى مثل هذه الوثنية الصريحة . وثانيهما أنهم يتقربون منها لإقصاء ضررها ، واستدرار خيراتها . ولقد نهى الإسلام نهياً قاطعاً عن التنجيم على أنه تنبؤ بما تحمل الأيام المقبلة فى طياتها ، فكيف به ، إذا هدف إلى تعديل سير الزمن والأحداث بتقديم القرابين . وتنبّه لمثل هذه البدعة واستنكرها المعاصرون لإخوان الصفاء وناقشوهم فيها ، ووضحوا لهم أن النبى قد نهى عن الخوض فى هذه الأشياء ، وكرّه إلى الناس ذكرها ، وتوعّدهم عليها وقال : « من أتى عرّافاً أو طارقاً[1] أو حازياً[2] أو كاهناً أو منجّماً يطلب غيب الله منه فقد حارب الله ، ومن حارب الله حرب ، ومن غالبه غلب[3] » . ولا عبرة باعتماد بعض الخلفاء جماعة من المنجمين لكشف الغيب . فإن واحداً منهم لم يعمد إلى تقديم القرابين لتحويل نتائج الأحداث المقررة . ومن الثابت أن الإخوان قد قدموا القرابين ، وأوصوا بذلك وسوّغوا فعله ، لتخليص النفوس ، وللتقرب من روحانيات الكواكب[4] .

فى الرسالة التاسعة من العلوم الناموسية والشرعية ، أى الرسالة الخمسين من المجموعة العامة ، نصوص وضعوها لتقرأ على الجماعة ، وخصّوا بها من خلصت نفسه ، ووثقوا بعقيدته ، واطمأنوا إلى صفاء نيته ، وختموها بفصل هو منها ، كما يقولون « بمنزلة القلب من الجسد ، والرأس من البدن[5] » يرددون فيها ما على العضو من واجبات نحو جسمه ونفسه ، إلى أن يصلوا به إلى أنواع العبادات فيقسموها إلى قسمين : شرعى ناموسى ، وهو اتباع صاحب الدين

---

(١) الطارق الذى يطرق الحصى مستخبراً إياه عن الغيب .

(٢) الحازى الذى ينظر فى الأعضاء وفى خيلان الوجه يتكهن .

(٣) الإمتاع والمؤانسة : ج ٢ ، ص ٨

(٤) الرسائل : ج ١ ، ص ١٥٧ ، والرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٤٢٣

(٥) الرسائل : ج ٤ ، ص ٣٩

والانقياد إلى أوامره ونواهيه . ثم الفلسفى الإلهى ، وهو ما نعبر عنه بقولنا : « العبادة الوثنية » . وهم ينصحون الإخوان — وإن كان مؤسسو الجمعية لا يفعلون — بمراعاة العبادة الشرعية ، والتقيّد بها وأداء فروضها ، ومعرفة تحليلها وتحريمها ، لكتم أمرهم عن العامة . غير أنهم يوصون أتباعهم أيضاً بالقيام بالشعائر الوثنية التى نتبين طقوسها بجلاء فى عبادة الصابئة ، لاعتقادهم أنهم « أحقّ الناس بالعبادة الفلسفية والقيام بها ، والأخذ لها ، والتجديد لما دثر منها[١] » ، ويتّخذون إلى جانب الأعياد الإسلامية العادية التى يشاركون فيها العامة ظاهراً ، أعياداً جديدة توافق ماعرفناه عن الديانات الأخرى التى اشتهرت فى الشرق والغرب . لهم فى كل شهر من شهور السنة اليونانية ثلاثة أيام : فى أوله ، ووسطه ، وآخره . وفى هذه الأيام الثلاثة يدعون بالدعاء الأفلاطونى ، والتوسّل الإدريسى ، والمناجاة الأرسططالية . ولا يزال المصلى كذلك حتى يبدو الفجر ، فيقوم فيسبغ الوضوء ويتطهّر . وإذا أقبل النهار ذبح بيده من محلّل الحيوان[٢] . ولهذه العبادة أربعة أعياد :[٣] يوافق أولها نزول الشمس برج الحَمَل عندما يستوى الليل والنهار ، ويعتدل الزمان ويطيب الهواء . وهو اليوم الموافق ابتداء فصل الربيع . ويكون ثانيها نزول الشمس أول السرطان ، أى عندما يتناهى طول النهار وقصر الليل ، ويجىء الصيف ويشتد الحر . ويوافق ثالثها استواء الليل والنهار ودخول الخريف . ويقع رابعها عند ما يتناهى طول الليل ويدخل الشتاء . يرمز العيد الأول إلى الفرح والخصب والخروج من الشدة ، والثانى إلى التعب والنصب ، والثالث إلى الفرح الممزوج بالحزن والغم ، والرابع إلى الحزن والكآبة . والأعياد الفصلية التى يشيرون إليها ، بل يتقيّدون بها ، وإن موّهوا أمرها على المريدين ، نجدها بأجلى وضوح فى الديانات الشرقية القديمة ، كما تبرز فى الوثنيتين الإغريقية والرومانية . وهى موافقة للاحتفال بتطورات الطبيعة وما يطرأ عليها من تعديل وتغير فى أوائل الفصول . فعيد

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٣٠٦ – ٣٠٨

(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ٣٠٣

(٣) يذكرون أنها ثلاثة (ج ٤ ، ص ٣٠٤) ثم يقولون إنها أربعة فى مقطع آخر (ص ٣٠٥)

الشمس مثلا فى الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) وهو اليوم الأول من السنة الجديدة أو يوم الشمس الجديدة Sol novus وعيد الربيع فى الخامس والعشرين من آذار (مارس) ، وهو يدل على دحر الشمس لليل ، ويمثّل فى نظر الوثنية الرومانية عيد فرح ، لأن البحارة يبدأون فيه مجابهة البحر بعد هدوء العواصف . وكان القرنان الثالث والرابع المسيحيان عهد ازدهار لهذه الأعياد الفصلية[١] . أما الأعياد الشهرية التى وقفنا عليها عند الإخوان فنحن واجدوها بحذافيرها فى الوثنية الشرقية القديمة ، وفى المذاهب الغربية التى تأثرت بها وعرفت باسم « الأعياد الشهرية » ، وكانت تقع فى أول الشهر ومنتصفه وآخره[٢] .

---

(١) Dict. des Antiquités Grecques et Romaines. t.ll, p. 1062, Paris, 1896

Franz Cumont, Les Religions Orient. dans le Paganisme Romain, p. 90, Paris, 1929

(٢) E. Dhorme, les Religions de Babylone et d'Assyrie, pp. 234-235, Paris, 1945

الفصل الثالث

جوانب إخوان الصفاء

١ - الإلهيات

ا - وجود الخالق وصفاته

يُعنَون بوجود الخالق، والكلام على كماله وقدرته، وينتهون إلى قول شبيه بما ذكرته جماعة المعتزلة من حيث التنزيه والوحدانية والقدرة، ولكنهم يخالفونهم فى بعض الأمور الجزئية .

فى رأيهم ليس من ضرورة لإثبات وجود الله ، لأن هذا الوجود بارز للعيان ، ساطع سطوع الشمس ، غير أنهم يعمدون إلى ما يشبه الأسلوب القرآنى لإثبات بديهية هذا الوجود، وذلك أن من تفكّر فى خلق السموات والأرض وما فى الآفاق والأنفس من الآيات الظاهرة والدلالات الشاهدة، يتبيّن له وجود الخالق المبدع ، ولا يتطرّق إلى ذهنه شكّ فى قدرته، وفى وحدانيته . فكثرتها دليلٌ على توحّده ، وازدواجها على مفرده، وانتقالها على دوامه ، وعجزها على قدرته ، وضعفها على قوته[1] . ولا يرون ضرورة لعرض صفاته لضعف الإنسان عن الإحاطة بالأمر ، ولتقصير العقل عن بلوغ هذه الغاية، لأن الله مستكمل الفضائل والخيرات، تام الأنوار والسعادات ، معرّى من الشوائب والتغيّرات ، مبرّأ من النقص الواقع من جهة الطبائع المختلفة[2] . لا يسأل عنه كيف هو ، وكم هو ، وأى هو ، وأين هو ، ولمَ كان[3] . وفى رأيهم أنّ الانقطاع عن الخوض فى هذا الجدل هو بالخالق أليَق، ويؤدّى

(١) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠

(٢) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٢٧٠

(٣) الرسائل : ج ٤ ، ص ٤٨

إلى رفع الخلاف بين الفرق التى غالت فى قضية الصفات ، وانتهت إلى نتائج مختلفة ، فدبّ الشقاق بينها ، وأدى الأمر إلى اضطراب النفوس ، وحيْرة القلوب .

يلخّصون رأيهم فى استحالة وصف الله ، لأن الإنسان لا يقدر إلا على ذكر صفات تتميز بها الكائنات المؤلفة من المادّة والصورة ، فى حين أن الخالق يتنزه عن الجسمية ، وإذا نسبت إليه بعض الصفات فما ذلك إلا عن طريق التقريب والمجاز ليتقرّر وجوده فى عقول الجسمانيين . ويروق الإخوان أن يشبّهوا الخالق بالواحد فى الأعداد . وذلك أن الواحد لا يتوهم أحد أن قبله شيئاً من العدد تقدّمه[1] ، وفيه أصل الكثرة كامنة بالقوة .

الخالق هو الذى قدر الأشياء والأعمال ، ولا يقوى على فعلها سواه[2] . وقدرة الإنسان صادرة عنه ، وبإرادته. نظّم ذلك بدرايته التى لا يدركها بشرى ، ولا يُعرف ما وراءها من حكمة دقيقة وعادلة . ذلك أن الإنسان يحكم على الأعمال كما تتراءى لحواسّه ، ولا يفهم كنهها ، ولا يتعمق فى سرّها ، فينسب إلى الخالق التصرّف الكيفىّ ، فى حين أنه ينظم الأعمال بحيث تتكامل ، وتؤدّى إلى نتيجة خيّرة . ويذكرون على ذلك مثال نبى اجتاز مرة عين ماء فى سفح جبل . وبعد أن شرب وتوضأ ارتقى الجبل ليصلى ، فرأى فارساً أقبل على العين ، فشرب وسقى فرسه ومضى ونسى صرّة فيها بعض المال . ثم أقبل راعٍ فرأى الصرة فأخذها . وجاء بعده شيخ حطاب بائس تعب وعلى ظهره حزمة من الحطب ، فاستلقى يستريح . فقال النبى فى نفسه : ألم يكن هذا الحطاب العجوز أولى بالمال من الراعى الشاب ؟ بعد قليل رجع الفارس وطلب الكيس فلم يجده فاتهم الحطاب بأخذه وقتله ومضى . عند ذلك تساءل النبى عن الحكمة الإلهية فى هذه القضية . فأوحى إليه الله أن أبا الشيخ قتل فى الزمان الماضى أبا الفارس ، وكان على أبى الفارس دين لوالد الراعى بمقدار ما فى الكيس[3] .

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ١٤ — ١٦

(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ٣٥

(٣) الرسائل : ج ٤ ، ص ٤٣ — ٤٤

ويستدلّون على رأيهم بأمثلة متعددة مثل هذا ليؤكدوا عدالة الخالق ، وأنه هو مصدر الأفعال خيرها وشرّها ، فعلى المؤمن أن يرضى بالقضاء والقدر وهو طيّب النفس بما يجرى من المقادير التى دلّ عليها الخالق بحركات النجوم والسيّارات[١] .

ب – الفيض العقلى والحدوث السفلى

كان الخالق وليس معه كائن آخر ، وهو الإبداع الحقّ المحض ، ثم أحدث العالم بجوده الدائم ، غير المنقطع ، وعنى بشؤون الكائنات لتبلغ درجة الكمال ، لأنه إذا أهمل العالم تلاشى دفعة واحدة[٢] . وقد خلق الأشياء كلها معاً بالقوة ، وضمّنها الكائن الأول الذى صدر عنه ، ثم أخرجها من القوة إلى الفعل ، الشىء بعد الشىء ، فكان الابتداء بالعالم الروحانى العلوى ، ثم انتهى إلى العالم السفلى . والخالق هو السبب الأول الذى يتعلّق به ما سواه من سائر الموجودات تعلّق المعلول بالعلّة ، مرتبة بعضها فوق بعض ، وفاعلة ومنفعلة[٣] .

أول ما فاض عنه هو العقل الكلّى ، المستكمل الفضائل ، القريب كل القرب من علته من حيث الصفات ، وهو السابق البادئ . وهو الخلقة التامة ، والإبداع الأول ، وموضع كلمة الله التى بها خلق الأشياء[٤] . ويطلقون على هذا الفيض اسم الإبداع اللاهوتى . والعقل جوهر بسيط روحانى ، فيه جميع صور الموجودات ، كما تكون فى نفس الصانع صور المصنوعات قبل إخراجها وصنعها . وهو مفيض تلك الصور على النفس الكلية دفعة واحدة بلا زمان[٥] .

ثم فاض عن العقل الكلى النفس الكلية المنبثقة منه ، و بواسطتها تصل الأجسام إلى أفضل أحوالها وأجلّ أعمالها . ونسبة العقل إلى الخالق كنسبة نور الشمس

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ١٣٣ – ١٣٤

(٢) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٢٣٦

(٣) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٣٨٨

(٤) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٥٢٨

(٥) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٧١

إلى الشمس ، ونسبة النفس إلى العقل كنسبة ضوء القمر من الشمس ، فكما أن القمر إذا امتلأ نوره من الشمس حاكى نوره نورها كذلك النفس إذا قبلت فيض العقل ، واستتمت ضياءها ، كانت أفعالها كأفعال العقل[١] . أشرق وجهها الذى هو الشمس بنور العقل[٢] ومن إشراقها الأول إلى فوق ترتبت الأفلاك ، وحدث سكان السموات وما فيها من العالم الروحانى ، ومن إشراقها الثانى إلى تحت ظهر فلك القمر[٣] . والنفس الكلية هى الإبداع الثانى ، وهى التى تلقى الموجودات إلى الهيولى الأولى القابلة للصور ، كما يكون فيض الشمس ونورها على الهواء[٤] .

ثم فاض عن النفس الكلية الهيولى الأولى التى هى ذات بالقوة ، لا وجود لها بالفعل . تخرج إلى الوجود عند قبول الصورة ، فهى مشتاقة إليها[٥] ، وهى صورة روحانية فاضت عن النفس الكلية ، وأصل الأفلاك العالمية ، وما فيها من الملأ الأعلى[٦] .

ثم فاض عن الهيولى الطبيعة السابقة للنفس الجزئية التى تتحد بها ، وهى سبب مواليد الكائنات ، وأصل تركيب أجساد الحيوان والنبات ، تمدّها الهيولى الأولى بقوى روحانياتها لقربها من النفس الكلية[٧] .

بعد الانتهاء من الحدوث العلوى يبدأ الحدوث السفلى أو الطبيعى وذلك أن النفس الكلية ، بتأييد من العقل الكلّى الفعال ، تحرّك الهيولى الأولى طولا وعرضاً وعمقاً ، فيتكون منها الجسم المطلق . وبواسطة هذا الجسم يتركّب عالم

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٥٧٨

(٢) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٥٢٩

(٣) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٥٢٨ — ٥٤٤

(٤) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٧٢ — ٧٣

(٥) الهيولى لفظة يختلف فى تحديد معناها كثير من الفلاسفة . ويستعملها الإخوان فى معان متعددة . فالصورة الواحدة تارة تسمى هيولى ، وطوراً صورة ، وهى حيناً جوهرية ، وأحياناً عرضية ، بسيطة أو مركبة (الرسالة الجامعة : ج ٢ ص ٧٤) ، أما المعنى العام الذى يذكرونه فى الرسائل فهو أن الهيولى جوهر بسيط قابل للصورة ، لا كيفية فيه البتة (الرسائل : ج ١ ، ص ١٩٩)

(٦) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ١٤٠

(٧) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ١٤٠

الأفلاك والكواكب والأركان الأربعة جميعاً . ثم تدور الأفلاك حول الأركان بحيث يختلط بعضها ببعض ، فيظهر منها المتولدات الكائنات من المعادن والنبات والحيوان [١] . وأول شيء بدا من الأرض هو المعدن ، ثم النبات ، لمّا قدّر الله أن يكون النبات غذاء للحيوان. ثم بدأ الحيوان يتركّب منه الأدون فالأدون . فالبدايةُ فى الخلق الأول بالأفضل الأعلى ، إذ كان عالم الجواهر النورانية التى لا تركيب فيها ولا تغاير ولا تباين إلا بشرف السبق بالرتبة والقرب من البارى . أما الخلق الجسمانى القابل للفساد وللاستحالة فكانت البداية فيه بالأدون حتى تكونَ النهاية بالأفضل .

لذلك كان ظهور الإنسان بعد كون المعادن والنبات والحيوان لما له فيها من المنفعة والمصلحة . ولو كانت البداية بالإنسان قبل المعادن والنبات والحيوان لكان خلقه عبثاً لأنه لا يقدر على البقاء ، ولا يتيسر له العيش [٢] . ويشبه الإخوان على سبيل المثال ، الخالق بالواحد ، والعقل بالاثنين ، والنفس بالثلاثة ، والهيولى بالأربعة ، والطبيعة بالخمسة ، والجسم المطلق بالستة ، والفلك بالسبعة ، والأركان بالثمانية ، والمولدات بالتسعة . وارتبطت هذه الكائنات بعضها ببعض ، فصار الأول للثانى كالنفس لسبقه إياه بقربه من الخالق ، والثانى كالجسم له لتأخره عنه [٣] . غير أن بين العالمين : الأعلى والأسفل ، تناسباً متعدّداً ، فإذا تفرّد الخالق بوحدانيته ليكون وحده الفرد الصمد ، فإننا نرى فى الأرض نظيراً للعقل الكلى هو العقل الجزئى ، ونظيراً للنفس الكلية هو النفس الجزئية المحيطة بجميع مواليد الأجسام الطبيعية كإحاطة النفس الكلية بجواهر الأفلاك السماوية ، ونظير الهيولى الأولى التى هى ذات الأفلاك الهيولى السفلية التى هى ذات الأمهات [٤] .

وهذا التناسق بين العالمين ناتج عن حكمة إلهية ، دبرت الأمور ، ونظمتها بدربة وحنكة بحيث بدا جسم العالم بأسره شبيهاً بجسم إنسان تام الأعضاء

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٤

(٢) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٢٧٩ – ٢٨٠

(٣) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ١٤٠ – ١٤١

(٤) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٣٣ – ٣٤

كما أن جسم الإنسان شبيه بالعالم أجمع ، ولهذا قال الإخوان فى كثير من صفحات رسائلهم إن العالم إنسان كبير ، والإنسان عالم صغير[١]. وفى رأى الإخوان أن الكواكب السبعة تدور فى أفلاكها إلى يوم معلوم ، حتى ينتهى الدور ، ويأتى دور آخر فتستأنف حركتها مرة ثانية. وقد مثّلوا لذلك بأن ملكاً بنى مدينة دورُ محيطها ستون فرسخاً ، وأرسل سبعة نفر يدورون حولها بسرعة مختلفة . يدور أحدهم كل يوم فرسخاً ، والآخر فرسخين ، والثالث ثلاثة فراسخ ، والرابع أربعة ، والخامس خمسة ، والسادس ستة ، والسابع سبعة ، وقال لهم دوروا حول هذه المدينة ، وليكن ابتداؤكم من الباب ، فإذا اجتمعتم كلكم عند الباب مرة ثانية بعد دورانكم فأتوا إلىّ وعرّفونى كم دار كل منكم لأستأنف أمراً جديداً . يقول الإخوان : « فمن فهم حساب دوران هؤلاء النفر حول تلك المدينة وتصوّره أمكنه أن يفهم دوران هذه الكواكب حول الأرض ، وبعد كم دورة تجتمع فى أول برج الحمل من حيث كان ابتداء دورانها[٢] » .

٢ ـ النفسيات

انصرفت النفس الكلية إلى العقل الكلّى علّتها ، تقبل منه الفيض والفضائل ، وتتراءى فيها المثالات العقلية أنواراً روحانية ، وهى منعـّمة ، مسرورة . غير أنها أرادت التشبه بعلّتها ، فتكون نافعة ، تفيض على كائن آخر ما أفاضه العقل الكلّى عليها ، فمكـّنها الواحد من الجسم ، وهيّأه لها ، خالقاً عالم الأفلاك وأطباق السموات ، من الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض ، فتحرّكت النفس الكلية حركة اختيارية ، وصوّرت فى الأشياء المخلوقة صوراً لما فى ذاتها . وجرى أمر النفس الكلية على هذا الحال زمناً مديداً ، على أحسن نظام إلى أن

---

(١) الرسائل : ج ٢ ، ص ١٢٣ ، والرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٥٨٢ – ٥٨٧ ، و ج ٢ ، ص ٢٦ – ٢٧

(٢) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ١٣٢ . يشير الإخوان إلى أن هؤلاء يجتمعون كلهم عند باب المدينة بعد ٤٢٠ يوماً ، وقد دار الأول سبعة أدوار ، والثانى ١٤ دورة ، والثالث ٢١ ، والرابع ٢٨ ، والخامس ٣٥ ، والسادس ٤٢ ، والسابع ٦٠ (الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ١٣٤)

كان من آدم ما كان ، فأهبطت النفوس الجزئية إلى مركز الأرض ، واتحدت بالأجسام السفلية ، وفارق الأجرام العلوية من استحق منها العذاب لما كان منه من النسيان والخطيئة . وانقسمت هذه النفوس الجزئية إلى ثلاث فرق : الأولى اتحدت بجوهرية المعادن ، والثانية اتصلت بجوهرية النبات ، والثالثة اتحدت بجوهرية الحيوان . ثم عطفت النفس الكلية بعد ذلك راجعة إلى قبول الفيض العقلي بالتوبة والاستغفار لمن فى الأرض [١] . وهكذا يتّضح لنا أن النفوس الجزئية هى القوى المنبعثة من النفس الكلية ، الهابطة إلى الأرض ، المشتاقة إلى عالم الطبيعة ، المتخلفة عن قبول الإفاضة العقلية ، التى لحقها الفتور عن التسبيح والتقديس فأهبِطت إلى الأرض ، وبليت بالعبادة والطاعة بالآلة الجسمية [٢] . وهى مجردة عن الجسمية ، جوهرة روحانية سماوية ، حيّة بذاتها ، علاّمة بالقوة ، قابلة للتعاليم ، متممة للأجسام [٣] . وهى واحدة بالذات ، وتقع عليها أسماء متعددة وتتشعّب بحسب ما يظهر منها من الأفعال [٤] . ومن رأيهم أن الحكم على النفس مجرّدة هو من الأمور المستحيلة . لأنها لا تقع تحت الحس ، ولا يدركها العقل ، فيبحثون عنها بما يظهر منها فى أعمالها عند اتصالها بالجسم . ودراسة تصرّفها معه تسهل للعلماء بحث خصائصها وتقرير صفاتها العامة .

أقوالهم المبثوثة فى الرسائل توضّح العلاقة التى تصل النفس بالجسد ، فإذا بها مبعث القوى والأفعال ، وبدونها يعود البدن طللا لا شأن له . أما انبثاثها فيه ، وإثارتها لقواه ، وتحريكها له ، وتآلفها معه فيشبه مدينة عامرة ، فتحت أبوابها ، ودبّت الحياة فى شوارعها ، وراجت تجارتها ، وعمل صُنّاعها ، وتحرك حيوانها ، ونما نباتها . فالنفس هى مصدر كل حركة وعاطفة وفكرة تصدر من المجموعة المؤلفة منها ومن الجسم . وفى رأيهم أن حالة النوم تبيّن أوضح تبيين دور النفس وأهميتها ، فإذا استولى السُّبات على الإنسان ، هدأت

(١) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٢٩٦ — ٢٩٩
(٢) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٣٨
(٣) الرسائل : ج ١ ، ص ١٩٧
(٤) الرسائل : ج ٢ ، ص ٣٢٦

الحواس ، وسكنت الحركات ، وقابلت حالةُ الجسم المدينةَ فى الليل : تغلق أبوابها ، وتتعطّل صناعتها ، وتخلو طرقاتها ، وينام سكانها . ثم ينجلى مبلغ أثرها بعد أن تفارقه نهائيـًا ، فإذا بكلّ ما كان يظهر منه من عمل يتلاشى ، ويصبح الجسم كالمدينة الخربة التى تهاوت جدرانها وخرّت سقوف منازلها ، يتغير وينتفخ ويصير مأوى الديدان ، ويتحوّل تراباً[1] . وأسهب الإخوان فى ذكر العلائق التى تربط العنصر الروحى بالعنصر المادى ، وردّدوا معانيهم فى كثير من رسائلهم ، ثم فى مقاطع الرسالة الجامعة . وهم يعتقدون أن هذه النفس تتغافل أحياناً عن أصلها العلوى ، فتتأثـر فى رفقتها للجسم ، بالمادة تأثراً بعيد المدى ، فتقدم على أعمال تسىء إلى جوهرها ، وبالتالى تحول دون تنقيتها وخلوصها إلى سعادتها الحقيقية . ويأتون بمثال فى غاية الطرافة ليبينوا الصلة التى تربطها بالجسم ، والمصير الذى تنتهى إليه إذا نسيت مصدرها ، وأقبلت على الطبيعة واستحسنتها ، وطلبت الرياسة والغلو والتعدّى . يقصّون حكاية المقعد والأعمى ، وهى تتلخص بأن هذين المشوهين عبرا بستاناً فشفق صاحبه على ما بهما ، فأذن لهما فى أن يأكلا ما يحمله إليهما من الثمار دون أن يفسدا أشجاره ، وأوصى بهما الناطور[2] الموكل بالبستان ، ومضى لشأنه . فتعهدهما الناطور بعنايته مدة من الزمن ، وفى أحد الأيام أفادا من غيابه فركب المقعد عنق الأعمى وطاف به البستان فأفسدا فيه كثيراً . وعندما عاد الناطور سألهما عمن فعل هذا ، فأنكرا أنهما رأيا إنساناً يدخل البستان . وفى الغد فعلا أقبح من فعلهما فى الأمس ، فخشى الناطور ملامة صاحب البستان ، فأوهمهما فى اليوم الثالث أنه خارج ، واستتر . فقاما إلى ما عوّلا عليه من الفساد ، فعرف حقيقة الأمر ولامهما على فعلهما فاعتذرا إليه ، وأظهرا الندم فكتم أمرهما . ولكنهما رجعا إلى الإفساد والتخريب ، فأخبر الناطور صاحب البستان . فأمر هذا بإخراجهما إلى برية لا يجدان فيها معتصماً

---

(١) الرسائل : ج ٢ ، ص ٣٣٣

(٢) الناطر والناطور : حافظ الكرم أو الزرع يجمع على نطار ونواطير . ومثله الناظور والنواظير بالجيم المعجمة قال المتنبى :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد

ولا ملجأ حتى يأكلهما الوحش[١] . وفى هذا المثال يقصدون بالمقعد النفس لأنها لا تبطش إلا بالآلة الجسدية ، وبها تتمكن من الطاعة والمعصية . وشبهوا الجسد بالأعمى لأنه ينقاد حيث توجهه النفس ، وشبهوا البستان بدار الدنيا ، والثمار بطيبات الدنيا من الشهوات ، وصاحب البستان هو الخالق ، والناطور هو العقل الذى يشير إلى الخير وينهى عن الشر[٢] .

الأعمال الصادرة عن النفس كثيرة ، تكاد لا تحصى . وذلك لأنها معنيّة بجميع شؤون الجسم من الغذاء والنماء إلى التوليد الفكرى. فهى جاهدة عاملة دائبة ليل نهار فى تركيب الأفعال وتنفيذها بحيث تكتمل للجسم حاجاته وللعقل ضرورياته . وكثيراً ما يشبه الإخوان الجسد من حيث كثرة عجائبه وترتيب أعضائه وطرائق تأليفه بمدينة ، والنفس بملك تلك المدينة ، وفنون قواها كالجنود والأعوان . وذلك أن لها قوى كثيرة ، ولكل واحدة منها مجرى فى عضو من أعضاء الجسد .

القسم الأول هو الذى يتألف من القوى الحساسة . وهى شبيهة برجال الشرطة تتولى كلّ واحدة منها ناحية لتنقل الأخبار . ويخصّ الإخوان بهذه المجموعة بضع صفحات من رسائلهم . فيفصّلون خصائصها ، ويشيرون إلى ميزات كل من السامعة والباصرة والشامة والذائقة واللامسة .

فالسامعة مجراها فى الأذنين ، وقد تولت المسموعات ، وهى تلتقط أنواعاً مختلفة من الأصوات ، منها المنطقية[٣] ، وغير المنطقية[٤] ، والحيوانية[٥] ، والمعدنية[٦] ، والآلية[٧] ، والنباتية[٨] ، والمائية[٩] ، ولكل من هذه الأنواع

---

(١) الرسائل : ج ٣ ، ص ١٦٤ – ١٦٦

(٢) الرسائل : ج ٣ ، ص ١٦٦

(٣) الأصوات المنطقية هى كل ما له هجاء

(٤) الأصوات غير المنطقية هى التى تبدو من الإنسان كالصراخ والأنين والتنفس وما شاكل ذلك.

(٥) الأصوات الحيوانية هى التى تصدر عن الحيوان مثل نهيق الحمار وصهيل الفرس .

(٦) الأصوات المعدنية هى التى تصدر عن الحديد والنحاس والذهب والفضة واصطكاك الأحجار .

(٧) الأصوات الآلية هى التى تصدر عن البوق والمزمار والطبل والدف والأوتار .

(٨) الأصوات النباتية هى التى تصدر عن اهتزاز الأشجار .

(٩) الأصوات المائية هى التى تصدر عن جريان الأنهار واضطراب أمواج البحار .

فروع متعددة تكاد لا تحصى عداً[١] . تتولى السامعة كل هذه الأعمال ، وتميزها ، وتوصل ما يحدث لها إلى المتخيلة .

أما الباصرة التى مجراها فى العينين ، فقد تولت إدراك المبصرات على مختلف أنواعها ، مثل الأنوار والظلم والألوان ، والمقادير والأبعاد والأشكال والصور والحركات والسكون . ولكل نوع من هذه فروع كثيرة ، تنقلها كلها الباصرة إلى المتخيلة .

أمّا الشامّة ، ومجراها فى المنخرين ، فقد تولّت إدراك الروائح والتصرف فيها والتمييز لها ، والحكم عليها إذا كانت لذيذة أو كريهة . والذائقة ، ومجراها فى اللسان ، تولت أمر الطعوم ، والتصرف فيها وتمييز بعضها عن بعض . وتنقسم إلى تسعة أقسام : الحلاوة الملائمة لطبيعة الإنسان ، والمرارة المنافرة لطبيعته ، وبينهما وسائط هى الدسومة والملوحة والحموضة والحَرافة[٢] والقبوضة والعفُوصة[٣] والعذوبة ، ولكل قسم أنواع متعددة . واللامسة ، ومجراها فى اليدين ، تولت أمر الملموسات ، وهى عشرة أنواع : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة والثقل والخفة .

ويمثلون حالة الحواس الخمس مع النفس بخمسة أنبياء مرسلهم واحد ، وشرائعهم مختلفة ، وتحتوى كل شريعة منها على واجبات متنوعة ، وطقوس متباينة ، وسنن متغايرة ، ولكن مرجعهم جميعاً هو واحد ، هو الله ، وكذلك شأن الحواس وما يتفرع عنها تتلاقى فى النفس الناطقة لتميز بعضها من بعض وتعرف كلا منها بحقيقته وتبين منازلها[٤] .

وفى عملية الإحساس ، تكاد أقوالهم توافق أحدث ما تحتوى كتب التشريح العصرية . يتلخص رأيهم بأن هذه العملية تتم بانتشار عصيبات لطيفة فى مقدم الدماغ ، تلتقى بأصول الحواس ، وتتفرّع هناك ، وتؤلف نسيجاً شبيهاً بنسيج العنكبوت . فإذا تبدّلت المحسوسات طرأ تعديل على الحواس ، وانتقل

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٥٩٦ وما بعدها .

(٢) الحرافة : طعم يلذع اللسان بحرارته .

(٣) العفوصة : مرارة وقبض يعسر معهما الابتلاع .

(٤) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٦٠٢

التأثر بواسطة تلك الأعصاب التى فى مقدم الدماغ وتجمع عند المخيلة ، كما تتجمّع الأنباء والأخبار عند مدير الشرطة ، وهذا ينقلها بدوره إلى الملك أو حاكم المدينة فيصدر أوامره .

وفى النفس مجموعة ثانية من القوى هى التى تدرك رسوم المعلومات إدراكاً روحانياً من غير هيولاها ، ويطلق عليها الإخوان اسم القوى الروحانية . تتألف من المتخيلة والمفكرة والحافظة والناطقة والصانعة . الأولى مجراها فى مقدم الدماغ ، وهى تتسلّم رسوم المحسوسات من الحواس ، وتقبلها فى ذاتها كما يقبل الشمع نقش الخاتم ، وتجمعها كلها وتؤديها إلى المفكرة . والمفكرة ، ومجراها فى وسط الدماغ ، تميز بعض هذه المحسوسات عن بعضه الآخر ، وتعرف الحقّ من الباطل ، والصواب من الخطأ ، والضارّ من النافع ، ثم تنقلها إلى الحافظة . والقوة الحافظة ، ومجراها فى مؤخر الدماغ ، تحتفظ بهذه المحسوسات إلى وقت الحاجة والتذكار ، حتى تطلبها الناطقة . والناطقة ، ومجراها من الحلقوم إلى اللسان ، تأخذ الرسوم المحفوظة وتلقى ألفاظاً من حروف المعجم ، تجعلها سمات لتلك المعانى وتعبّر بها للقوة السامعة . وبما أن الأصوات لا تمكث فى الهواء إلا ريثما تأخذ الأسماع منها حظاً ، ثم تضمحلّ ، اقتضت الحكمة الإلهية تقييد الألفاظ بصناعة الكتابة ، فأودعت الأوراق ليبقى العلم محفوظاً[١] والقوى الروحانية تتعاون فى إدراك رسوم المعلومات بحيث يتأدّى عن أعمالها المشتركة ما يسمح للنفس بتمييز الأشياء والحكم عليها حكماً صادقاً[٢] .

للنفس ، بالإضافة إلى المجموعتين السابقتين ، مجموعة ثالثة من القوى هى التى يطلق عليها اسم القوى الطبيعية ، وهى منبثة فى أعضاء الجسم ، ويتولّد عنها كثير من الأفعال الصادرة عن الجسد ، وتشبه فى نشاطها وحركاتها ما يصدر عن سكان المدينة من أعمال فى منازلهم وأسواقهم ومضطرب حياتهم . تقسم هذه القوى إلى ثلاثة أنواع : النباتية ، والحيوانية ، والناطقة .

تتمثل فى النباتية نزعات النفس وشهواتها ، ومسكنها الكبد . وفيها سبع قوى

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٦٠٥

(٢) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٦٠٢

فعّالة هى : الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والمصورة والنامية . وتفعل بكل فرع من هذه الفروع فعلا خلاف ما تفعله بقوة أخرى . وذلك أن الجاذبة إذا امتصّت نداوة التراب بعروق النبات انجذبت معها الأجزاء الترابية لشدّة اتحادها بها ، فإذا حصلت تلك المادة فى عروق النبات أنضجتها الهاضمة ، وصيرتها مشاكلة لمادّة العروق ، وألزقت القوة المصوّرة بكل شكل من تلك الأعضاء والمفاصل ما يلائمه ، وزادت النامية فى حجمها طولا وعرضاً وعمقاً ، وما فضل من تلك المادة ولطف ورقّ رفعته الدافعة إلى فوق فى أصول النباتات وقضبانها وفروعها وأغصانها ، وجذبته الجاذبة إلى هناك ، وأمسكته الماسكة لئلا يسيل راجعاً إلى أسفل[١] . أما مظهرها فى الحيوان أو الإنسان فيتمثّل بميله إلى المآكل والمشارب والملذات . وهذا الميل ملازم له ، لا يخلو منه طرفة عين ، وبه يكون نمو الجسد وبقاؤه وكماله .

والحيوانية مسكنها القلب ، ولها حركاتها وأخلاقها وحواسها وفضائلها ورذائلها ، وتتمثل فى ميل الإنسان نحو القهر والغلبة والرياسة والتعدى والجهالة والمغامرة والنجدة . وهذه القوة هى التى تموّه الحقائق ، وتَعْدُل بالنفس عن الصواب .

والناطقة ، ومسكنها الدماغ ، لها ميزاتها ومعارفها وفضائلها ورذائلها . وتتمثّل فى ميل الإنسان نحو المعارف واكتساب الفضائل ، ويكون صلاحها وخيرها فى محبة العلوم والحكمة ، وجمع الكتب والوقوف عليها والتأمل بما فيها ، والاطلاع على السنن وعلم أحكام النجوم[٢] .

وهذه القوى ليست أقساماً متفرقة متباينة ، بل هى متضامّة متّفقة تصدر من أصل واحد كالأغصان التى تنبت من الشجرة . وتتوزّع كلّ قوّة ، كما يتفرّع من كل غصن عدة قضبان ، ومن كلّ قضيب عدة أوراق وثمار[٣] .

يرى الإخوان أن نفس الطفل صحيفة بيضاء قابلة لأن تنطبع بما يعرض

---

(١) الرسائل : ج ٣ ، ص ١٩٥

(٢) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ١٧٤

(٣) الرسائل : ج ٢ ، ص ٣٢٥

لها من التأثير ، خيراً كان أم شرًّا . ويصعب انتزاع ما يلحقها من الكدر ، لذلك علينا أن نعنى بها عناية خاصة لتتشكّل بالصور الجميلة ، وتتخلّق بالأخلاق النبيلة « لأنه إذا كتب فيها شيء ، حقًّا كان أم باطلا ، فقد شغل المكان ، ومنع من أن يُكتب فيه شيءٌ آخر ، ويَصْعُبُ حكّه ومحوه » . ومن هنا نشأ ميلهم إلى بثّ دعوتهم بين الأحداث والفتيان ، والابتعاد عن المتقدّمين فى العمر ، لأن هؤلاء قد أثقلت نفوسهم بما قبسوه طول حياتهم من تعاليم فاسدة . ويفترضون أن يكون المعلم الذى يقوم بتهذيب نفوس الأحداث فصيح اللسان ، حسن المنظر ، كثير الصبر ، وأن يقابله تلاميذه بالاحترام الشديد والتقبل لوصاياه .

يحاولون درس الطرق التى يبلغ بها الإنسان إدراك المعقولات ، فيرون أنها على ثلاثة أنواع : أحدها طريق الحواس الخمس ، وهو أبسطها ، ويشترك فيه عامة الناس والحيوان ، ويتميز به الأطفال فى طورهم الأول . وثانيها طريق العقل وهو يختص بالإنسان ، ويكون عند البلوغ . وثالثها طريق البرهان ، ويتفرّد به قوم من العلماء دون غيرهم من الناس . ولا تتمّ هذه المعرفة إلا بعد النظر فى الرياضيات والهندسة والمنطق[١] . والنفس التى تتوصّل إلى إدراك المعقولات بالبرهان المنطقى تصفو وتكمل ، وتتميّز بالفضائل ، وتنمو بالحكمة ، وتضىء بالمعارف ، وتعلو إلى اشتياق الأمور الخالدة ، والنظر فى العلوم الإلهية ، والمذاهب الروحانية ، متشبهة فى ذلك بجوهرها الكلى .

ومن المسلّم به عندهم أن النفوس الصالحة التى بلغت مرتبة الكمال ، وتبينت مبدأ معادها ، تتمكن من الحياة مستقلة عن بدنها بعد حلول الموت ، فتستغنى بجوهرها عن التعلق بالأجسام ، وترتقى إلى الملأ الأعلى ، وتشاهد تلك الأمور الروحانية التى لا تدرك بالحواس الخمس .

أما إذا لم تبلغْ هذه المرتبة ، وأرهقتها أعمالها السيئة ، فإنها عند مفارقة الجسم لا تنتفع بجوهرها ، ولا تستقلّ بذاتها ، بل تبقى مقيّدة متألمة ، معذّبة إلى أن تقوم القيامة . كلّ ذلك لشدّة شوقها إلى الجسمانية التى اعتادتها وفارقتها

(١) الرسائل : ج ٢ ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥

قبل أن تحصل لها اللذات الروحانية[١] . غير أنهم يذهبون فى « الرسالة الجامعة » إلى ما يخالف هذا الرأى ، فيرون أن النفوس ترقى من حالة انحطاطها إلى أن تخلص كلها ، وتتصاعد بأجمعها كما يتصاعد البخار من المياه ، وترجع النفوس الجزئية إلى النفس الكلية[٢] .

٣ ـ الأخلاقيات

المبادئ العامة التى يبنى عليها الإخوان نظرياتهم فى الأخلاق مقتبسة من الديانات المختلفة ، موحدة ومجوسية . وهم يميلون ميلا أكيداً نحو الزهد والروحانية . ويرون أن نزول النفس الجسم أدّى إلى ضياع كمالاتها ، فهم يحاولون بالمعرفة والفضيلة إثارة شوقها إلى مصدرها السامى . وخير ما تتحلى به الحب القوى لعالمها الأول . وفى وسع الإنسان الوصول إلى مرتبة من التسامى تقارب مرتبة الملائكة ، وذلك بأن يترك كل عمل قبيح وخلق مذموم ويكتسب أضدادها من الأخلاق الحميدة ، ويتعلّم علوماً حقيقية ، ويعتقد آراء صحيحة ، وعندئذ يصبح صالحاً فاضلا ، وتصير نفسه ملكاً بالقوة ، فإذا فارقت الجسد عند الموت أصبحت ملكاً بالفعل[٣] . غير أن اكتساب الخلق الطيب ، والابتعاد من السيئ ليس بالأمر السهل على الإنسان ، لأنه يتجاوز فى معظم الأحيان إرادته واختياره ، ويتقرّر بعوامل وقوى تتعداه . ذلك أن أخلاق الناس وطبائعهم تتأثّر بأربعة عوامل مختلفة هى : أولا نسب الأخلاط التى تتألّف منها أجسادهم ، وثانياً تربة بلدانهم واختلاف أهويتها ، وثالثاً نشوؤهم على ديانات آبائهم ومعلميهم ، ورابعاً موجبات أحكام النجوم فيهم عندما يكونون أجنّة فى بطون أمهاتهم . وفى رأى الإخوان أن هذا العامل هو الأصل والأهم ، وأمّا الثلاثة الأولى فهى فروع .

(ا) من الشائع فى مصنفات الفلاسفة القدماء أن الإنسان مؤلّف

---

(١) الرسائل : ج ٣ ، ص ٢٧ و ص ٣٦ والرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٢٨٣

(٢) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٣٠٠

(٣) الرسائل : ج ٢ ، ص ١٤٦

من أربعة أخلاط : ماء وتراب ونفس وروح ، ويتأتّى عنها أن يكون جسمه رطباً أو يابساً أو حارًّا أو بارداً . فالحار الطبع هو فى الأكثر شجاع القلب ، سخىّ ، مغامر ، قليل الثبات والتأنّى ، مستعجل الحركة ، شديد الغضب ، ذكى ، جيد التصوّر . والبارد الطبع هو على الأغلب بليد الذهن ، ثقيل الروح . والرطب الطبع هو عادة بليد ، قليل الثبات ، ليّن الجانب ، سمح النفس ، سريع النسيان . واليابس الطبع يغلب عليه الصبر فى الأعمال ، والثبات فى الرأى والحقد والبخل (١) .

(ب) تختلف مواقع البلدان من حيث قربها من المناطق الحارة أو الباردة . وتتفاوت من حيث وقوعها فى أعالى الجبال أو فى السهول والأودية ، وقرب الشواطئ أو فى الصحارى . ولكلّ نوع منها أثر خاصّ فى خلق الإنسان الذى يقطنه . وليس إشراق الكواكب عليها واحداً فى جميع المناطق ، فإن بعضها معرّض لمطالع البروج أكثر من بعضها الآخر . وهذا كله يؤدّى ، إلى اختلاف أمزجة الأخلاط ، فيستتبع اختلاف أخلاق الناس وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم ومذاهبهم . فالذين يولدون فى البلدان الحارّة ، ويتنشقون هواءها ، تغلب على أجسامهم البرودة . والذين يولدون فى الأقاليم الباردة ، وينشأون فيها تغلب عليهم الحرارة . ونتج عن هذا العامل أن أهل الجنوب من الحبشان والزنج وسكّان الهند غلبت على بلادهم الحرارة ، فاحترقت ظواهر أبدانهم ، واسودّت جلودهم ، وبردت بواطن أبدانهم . ونلمس عكس هذا فى أهل البلدان الشمالية (٢) .

(ج) أثر التربية والبيئة الاجتماعية والدينية بيّن فى خلق الإنسان ، فإذا نشأ الولد مع الشجعان والفرسان يتطبع بعاداتهم ، أما إذا نشأ مع جماعة من ضعفاء الإرادة ، أصحاب السيئات ، لايلبث أن يسير على خطاهم ويفعل فعلهم . فالآباء والأمهات والأخوة والأتراب (٣) والأصدقاء والمعلمون وأصحاب

---

(١) الرسائل : ج ١ ، ص ٢٢٩ — ٢٣٠

(٢) الرسائل : ج ١ ، ص ٢٣٣ — ٢٣٤

(٣) الأتراب : جمع ترب بكسر التاء وهو الصديق أو من ولد مع غيره وكان فى مثل سنه .

الأديان يكيّفون شخصية الإنسان، ويطبعونها بطابعهم الخاص . ويأتون على ذلك بأمثلة مؤيدة لرأيهم ، منها مثال اليهودى والمجوسى المترافقين، ذلك أن يهودياً من أهل أصفهان كان مسافراً من بلد إلى آخر وليس معه دابة ولا زاد، فلقى فى طريقه مجوسياً من أهل كرمان راكباً بغلة، وعليها ما يحتاج إليه المسافر من زاد ونفقة . فتحدّثا عن الأديان ، وذكر اليهودى أن دينه يأمره بالعطف على الذين يعتقدون اعتقاده ، وإهلاك المخالف له، وذكر المجوسى أن دينه يعلّمه فعل الخير لمن وافقه فى عقيدته ولجميع البشر على السواء، وأن من يسىء إليه يترك أمر معاقبته لله . فطلب اليهودى من المجوسى أن يطعمه ، وأن يركبه البغلة ففعل . وما إن صار على ظهرها حتى حركها وترك رفيقه وولّى هارباً . فدعا المجوسى ربه أن ينتقم له فرمت البغلة راكبها أرضاً ولحق بها صاحبها. ومع ذلك فقد حمل اليهودىّ معه وتعهّده بالخير رحمة به . وذلك لأنه نشأ على مذهب يعلمه مقابلة الإساءة بالإحسان[١] .

(د) أما الأثر الأكبر فهو للنجوم والكواكب، وإليها مردّ البواعث السابقة ، لأنها تؤثّر فى تكوّن الأخلاط وتناسقها أو تغلّب أحدها على الآخر. وفى رأى الإخوان أن الذين يولدون فى البروج الناريّة ، أى فى الأوقات التى تكون فيها الأرض معرّضة لتأثير الكواكب الناريّة مثل المريخ وقلب الأسد وما شاكلهما ، تغلب عليهم الحرارة وقوة الصفراء، والذين يولدون تحت تأثير الزهرة والشعرى اليمانية تغزر فى أبدانهم الرطوبة والبلغم ، والذين يولدون تحت تأثير البروج الترابية ، فى الأوقات التى يستولى عليها زُحَل ، وما شاكله من الكواكب الثابتة ، تغلب على أبدانهم اليبوسة والمرّة السوداء، والذين يولدون تحت تأثير المشترى يغلب على أبدانهم الدّم والاعتدال[٢] . ويضيفون إلى ذلك أن هذا العلم لا يعرفه بدّقة إلا من اطّلع على علم التنجيم، وعرف مدى تأثير العالم الأعلى فى عالمنا الأرضى .

---

(١) الرسائل : ج ١ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٩

(٢) الرسائل : ج ١ ، ٢٣٤

٤ ـ الأسلوب والرسائل

يمثل الإخوان الأسلوب الرمزى فى الفكر العربى أحسن تمثيل . أخرجوا أفكارهم فى قصص بارعة ، ونثروا الأساطير فى الرسائل الخلقية والنفسية حتى شابهت فى بعض مقاطعها فصول كليلة ودمنة من حيث الحكايات المتشابكة التى تنتهى إلى تأييد نظرياتهم الفلسفية أو العلمية. ومن الثابت أنّهم تأثّروا تأثّراً بيّناً بكتاب كليلة ودمنة ، وأشاروا إلى بعض حكاياته ، واستخدموا شخصياته ، وجعلوا كليلة ممثلا للسباع فى الدعوى التى أقامتها الحيوانات على بنى آدم[١] . وألفوا التمهيد لفكرتهم ، ثم التمثيل لها ، واستنتاج ما يريدون قوله . فإذا شاؤوا تعريف القارئ برسائلهم الظاهرة بالنسبة إلى مؤلفاتهم الخفية الخاصة قالوا إن تلك هى كالمقدمات لهذه ، والمداخل إليها ، وساقوا قصة طريفة مؤيدة موضّحة لفكرتهم[٢] ، وبذلك يبلغون غايتهم من ترسيخ فكرتهم فى ذهن المريد .

من الملاحظ أن الأسلوب المتبع فى الرسائل العلمية يغاير أسلوب الرسائل الشرعية والناموسية . فى الأولى يبدو جليًّا واضحاً ، لا التواء فيه ولا غموض ، ويتّجه صاحبه مباشرة إلى غايته ، ليؤدى المعنى المقصود ، وفى الثانية تغلب الصياغة الأدبية ، وتغزر المحسنات اللفظية ، وتتعدّد العبارات المترادفة . ويستشهد الإخوان فى بعض رسائلهم بأبيات فارسية[٣] ، كما أنه يرد فى بعض رسائلهم مقاطع لا علاقة لها بالمبحث المطروق . وتختلف الرسائل من حيث الحجم ، فلا يزيد بعضها على بضع صفحات[٤] ، ويزيد بعضها الآخر على مائة وخمسين صفحة[٥] . وذلك تبعاً لأهمية المبحث . ولعل مرد هذه الظاهرة إلى أن الرسائل لم تحافظ على الحجم الذى وضعت به أصلا عندما

---

(١) الرسائل : ج ٢ ، ص ٢٠٦

(٢) الرسائل : ج ١ ، ص ١٩ — ٢٠

(٣) الرسائل : ج ١ ، ص ١٧٦

(٤) الرسائل : ج ٤ ، ص ٣١١ إلى ٣١٩

(٥) الرسائل : ج ٤ ، ص ٣٢٠ إلى ٤٧٨

تداولها قراؤها فى بداءة الأمر ، وإنما كان المريدون والمطالعون يعمدون إليها فيوجزون أحياناً معانيها تسهيلاً لحفظها ونسخها . ويرد فى بعضها مقاطع من رسائل أخرى سابقة لها ، دون تلخيص أو توسيع ، بل بحرفيتها ، مما يؤيد الفكرة القائلة إن الرسائل كتبت لتوزع على طلابها متفرقة ، فينسخوها ، ويدخلوا بين فقراتها ما يكون قد دفع إليهم آنفاً كما نلمس ذلك فى الرسالة الرابعة من العلوم الناموسية والشرعية حيث يشيرون إلى رتب الإخوان فى الصفحتين ١١٩ – ١٢٠ (ج ٤) ، ثم يعيدون النصّ بحرفيته فى الرسالة السابعة من العلوم الناموسية والشرعية فى الصفحتين ٢٢٢ – ٢٢٣ (ج ٤) .

تحتوى الطبعتان الهندية والمصرية على إحدى وخمسين رسالة مقسومة إلى أربعة أقسام : الرياضية التعليمية ، والجسمانية الطبيعية ، والنفسانية العقلية ، والناموسية الإلهية ، فى حين أن الإخوان يشيرون فى المقدمة إلى أن عددها الإجمالى هو اثنتان وخمسون . ولا عبرة بما ذكره ده بور من أن الإخوان ربما قصدوا أصلا أن تكون خمسين فى أنواع الحكمة ، أما الحادية والخمسون فتجمع أنواع المقالات على طريق الاختصار والإيجاز[١] . لأنهم يذكرون اثنتين وخمسين رسالة فى الجامعة بوضوح لا يقبل التأويل[٢] . ومن المفترض أن يكون القراء والنسّاخ قد مزجوا رسالتين معاً فى القسم الرابع منها ، لأن الإخوان يحدّدون عددها بإحدى عشرة ، ولا نجد منها سوى عشر ، فى حين أن عدد المجموعات الثلاث السابقة كاملة العدد ، مطابقة لما ورد فى المقدمة .

اختلف أسلوبهم فيها حسب طبيعة البحث ، وحسب درجة الجماعة التى توضع بين أيديهم من حيث رقى إدراكهم واستيعابهم للعلوم ، واستعدادهم لفهم المعانى البعيدة الغور . ولعل بعض الرسائل كانت تبدو لمن يطالعها من عامة الناس والمريدين بريئة الظاهر والعبارة والمعنى ، ولكن العليم الخبير بأسرار الإخوان يعثر ما بين السطور على مفاتيح أسرار الدعوة ، ويدرك المعانى القصّية من كل قصة يذكرونها وتشبيه يسوقونه . وقد أشاروا إلى وجود مثل هذه المعميات ،

---

(١) ده بور ، ص ٩٨

(٢) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٦٥٣

وهذه الرموز فى الرسالة الجامعة عندما أكـّدوا أن رسالة الموسيقى الواردة فى المجموعة العامة تحتوى على رموز لا يدرك كنهها إلا الخاصة . وأن « فيها مواضع كثيرة مرموزة » ، ذكروا « فيها علوماً نافعة جليلة تصعب إلا على من ارتاضت نفسه بالعلوم الحقيقية »[١] . وبذلك يكونون قد أرضوا أذواق الجميع : عامة المتعلمين وخاصتهم . الأولون يأخذون المعانى على ما تدل عليه الألفاظ الظاهرة ، والآخرون يستشفون الخفايا السرية بالاستناد إلى بعض الإشارات المتفق عليها بينهم . ثم غالوا فى الرمزية فى الرسالة الجامعة ، إذا عمدوا إلى الأساليب المتعارف عليها فى الجاسوسية العالمية من استبدال الحروف العربية بإشارات غريبة لا يعرف ما يعادلها إلا الذين وقفوا على صحيفة تلك الرموز . ويبدو أن الإخوان كانوا قد وزعوا على رجالهم الموثوق بهم نسخة من هذه الصحيفة ، كاشفين لهم سرها ، وكيفية الاطلاع عليها ليدركوا الغاية الخفية من كتاباتهم الغريبة[٢] . واستخدموها فى بعض مقاطع الرسالة الجامعة ، وبذلك أضفوا على أقوالهم شيئاً من مظاهر السرية[٣] . أما المفتاح فقد أوردوه فى الصفحة ٥٢٣ ، ج ١ من الرسالة الجامعة .

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ١٩٣

(٢) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٦٨٨

(٣) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، إلخ . . .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار إخوان الصّفاء

١ – نشر الدعوة

تهذيب النفس

يعمد إخوان الصفاء فى بث دعوتهم إلى اشتراط صفاء النفوس لأن أسرار الحكمة لا تتكشف إلا للنفس النقية الصافية .

واعلموا أيها الإخوان أيّدكم الله تعالى و إيّانا بروح منه ، أنه لا ينبغى أن يتكلم أحد فى ذات البارى تعالى ولا فى صفاته بالحزر والتّخمين ، بل ينبغى له ألا يجادل فيه إلا بعد تصفية النفس ، فإن ذلك يؤدّى إلى الشكوك والحيرة والضلال ، كما قال تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ[1] » ونحن نبتدئ أولاً قبل كل شيء فنبين كيف ينبغى أن نصفّى النفس من الأخلاق الرديئة التى اعتدنا عليها من الصّبا ، ونجعل لوصفنا ذلك فى رسائلنا الرياضية أبواباً شتّى ، ونذكر فى كل باب ضروباً من الأمثال لكيما يكون أوضح للبيان ، وأقرب للفهم ، وأبلغ فى الموعظة ، ثم بعد ذلك نصف فى هذه الرسائل أبواباً أُخَر يتبيّن فيها ما الطريق المستقيم إلى الله عزّ وجلّ ، وكيف ينبغى أن تتبع بكلام موزون ودلائل واضحة ، ليكون منهاجاً للقاصدين و إرشاداً للمريدين ، ثم نبتدئ بعد هاتين الجهتين بالكشف عن الأمور الإلهية الحية ،

---

(١) ق . ك : الحج ٨

والأسرار المخزونة مما قد عرفناه بإلهام الله تعالى ، أو مما قد استبطنّا من تفاسير كتب أوليائه ، وتنزيلات أنبيائه عليهم السلام ، ومما قد جرى على ألسنة الحكماء فى إشاراتهم ورموزاتهم ، ومن سبب بدء كون العالم بعد أن لم يكن ، ووقوع النفس وغرورها وخلق آدم الأول وسبب عصيانه ، وحديث الملائكة وسجودهم لآدم ، وقصة إبليس والجان واستكباره عن السجود ، وشجرة الخلد والملك الذى لا يبلى ، وسبب أخذ الميثاق إلى ذرّية آدم ، وأخبار القيامة والنفخ فى الصور ، والبعث والنشور والحساب ، وفصل القضاء ، والجواز على الصراط ، والنجاة من النار ، والدخول إلى الجنة وزيارة الرب تبارك وتعالى ، ومثل كل هذا من الأخبار المذكورة فى كتب الأنبياء صلوات الله عليهم ، وما حقائق معانيها لأن فى الناس أقواماً عقلاء مميّزين متفلسفين ، إذا فكروا فى هذه الأشياء وقاسوها بعقولهم لا تتصور لهم معانيها الحقيقية ، و إذا حملوها على ما يدل عليه ظاهر ألفاظ التنزيل ، لا تقبله عقولهم فيقعون عند ذلك فى الشكوك والحيرة ، و إذا طالت تلك الحيرة بهم أنكروها بقلوبهم ، و إن كانوا لا يظهرون ذلك باللسان مخافة السيف .

وفى الناس أقوام دونهم فى العلم والتمييز ، يؤمنون ويعلمون أنها الحق ، وأقوام آخرون يأخذونها تقليداً ولا يتفكرون فيها ، وفى الناس طائفة إذا سمعوا مثل هذه المسائل ، نفرت نفوسهم منها واشمأزوا عن ذكرها و ينسبون المتكلم أو السائل عنها إلى الكفر والزّندقة والمتكلّف لما لاينبغى .

فأولئك أقوام قد استغرقت نفوسهم فى نوم الجهالة ، فينبغى للمذكّر لهم أن يكون طبيباً رفيقاً يحسن أن يداويهم بأرفق ما يقدر عليه من التذكار لهم بآيات الكتب الإلهية ، وما فى أيديهم من أخبار أنبيائهم ، وما فى أحكام شرائعهم من الحدود والرسوم والأمثلة ، فإن ذلك كله إشارات للنفس بتذكيرها ما قد غفلت

عنه من أمر معادها ومبدئها ، مثل مقادير الفروض على أعداد مخصوصة ، ومثل أحكام النبيين على شرائط معلومة ، ومثل تأديتها فى أوقات معروفة ، ومثل التوجه إلى الجهات المختلفة ، ومثل التعبّد على فنون متباينة. إن كان هؤلاء من أهل التوراة ، أو من أهل الإنجيل ، أو من أهل القرآن ، فإن تعلقهم بظاهر أحكام شرائعهم ، وحرصهم وعنايتهم بقراءة كتب أنبيائهم ، و إقرارهم بصواب ما فيها من الأحكام للدين والدنيا ، حجّة للمذكّرين لهم بعد ما جهلوه من أمر عالمهم ، وما قد نسوه من أمر معادهم ومبدئهم ، وشاهد عليهم بما جحدوه من معانى هذه المسائل التى ذكرناها . و إن كان هؤلاء القوم المنكرون لمعانى هذه المسائل ، من عَبَدة الأوثان والأصنام والنيران والشمس والكواكب وما شاكلها ، فإن فى كتب نواميسهم ، وصور هياكلهم ، وأحكام سننهم ، أمثلة أيضاً لذلك ، و إشارات إليها ، مثل ما فى الشرائع والأديان النبوية . لكن يحتاج أن يكون المذكرون لهم عارفين بها .

و إن فى الناس طائفة إذا سمعوا مثل هذه المسائل تطلعت هِمم نفوسهم إلى أجوبتها ، ورغبت فى معرفة معانيها . فإذا سمعوا الجواب عنها قبلتها بلا حجة ولا برهان ، ولكن على التقليد .

أولئك قوم نفوسهم سليمة بعد ، لم تتعوّج بالآراء الفاسدة ، ولم تستغرق بعد فى نوم الجهالة ، فيحتاج المذكر إلى أن يسلك بهم طريقة التعليم إلى التدريج ، كما وصفنا فى الرسالتين الأوليين اللتين وضعناهما للمتعلمين والمريدين ، فإذا تهذبت نفوسهم ، وصفت أذهانهم ، وقويت أفكارهم ، أطلقت لهم أجوبة من هذه المسائل ببراهينها كما بيّنا فى الرسائل الخمس التى صوّرناها على صورة الإنسان ، وأوضحنا دلائلها بالمثالات التى فيها صورة الإنسان . وفى الناس طائفة من أهل العلم قد نظروا فى بعض العلوم ، وأقرّوا بعض كتب الحكماء ، أو سمعوا من

المتكلمين فى مناظرتهم ومن المتفلسفين والشرعيين جميعاً قد تكلموا فى مثل هذه المسائل وأجابوا عنها بجوابات مختلفة ، ولم يتفّقوا على شىء واحد ، ولا صحّ لهم فيها رأى واحد ، بل وقعت بينهم فى ذلك منازعات ومناقضات . كل ذلك لأنهم لم يكن لهم أصل واحد صحيح ، ولا قياس واحد مستوٍ يمكن أن يجاب به عن هذه المسائل كلها ، من ذلك أو على ذلك القياس ، ولكن كانت أصولهم مختلفة وقياساتهم متفاوتة غير مستوية .

واعلموا أيها الإخوان أيدّكم الله و إيانا بروح منه ، أن الجواب على أصول مختلفة ، والحكم بقياسات متفاوتة ، تكون متناقضة غير صحيحة ، ونحن قد أجبنا عن هذه المسائل كلها أو أكثر منها مما يشا كلها من المسائل على أصل واحد وقياس واحد ، وهو صورة الإنسان ، لأن صورته أكبر حجة لله على خلقه ، ولأنها أقربها إليهم ، ودلائلها أوضح و براهينها أصح ، وهى الكتاب الذى كتبه بيده ، وهى الهيكل الذى بناه بحكمته ، وهى الميزان الذى وضعه بين خلقه ، وهى المكيال الذى يكيل لهم به يوم الدين ما يستحقّونه من الثواب والجزاء ، وهى المجموع فيها صور العالمين جميعاً ، وهى المختصر من العلوم التى فى اللوح المحفوظ ، وهى الشاهد على كل جاحد ، وهى الطريق إلى الخير ، وهى الصراط الممدود بين الجنة والنار .

و ينبغى لمن يدّعى الرياسة فى العلوم الحقيقة ، و يقول إنه يحسن أن يجيب عن هذه المسائل التى تقدم ذكرها ، أن يطلب منه الجواب على أصلٍ واحد وقياسٍ واحدٍ ، فإنه لا يمكنه إلا أن يجعل أصله صورة الإنسان من بين صور جميع الموجودات من الأفلاك والكواكب والأركان والحيوان والنبات وغير ذلك ، و إن جعل أصله أشياء غير صورة الإنسان ، فلا يمكنه أن يقيس بها سائر الموجودات ، ويجيب عن هذه المسائل إلا بمثل ما قسنا عليه نحن وأجبنا عنه ، و إذا فعل ذلك

اتفق الجميع على رأىٍ واحدٍ ، ودينٍ واحدٍ ، ومذهبٍ واحد ، وارتفع الخلاف واتضح الحق للجميع ويكون ذلك سبباً لنجاة الكل .

ونحن لا نرخِّص لأحد بالنظر فى مثل هذه الأشياء ، ولا السؤال عنها إلا بعد تهذيب نفسه بمثل ما قلناه ووصفناه فى هذين الكتابين ، اقتداء بسنّة الله تبارك وتعالى ، كما أخبر وقال : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ [(١)] » وذلك أن موسى عليه السلام قام لياليها وصام نهارها حتى صفت نفسه فناجاه الله تعالى عند ذلك كله .

ويروى عن النبىّ صلى الله عليه وعلى آله وسلّم أنه قال : « من أخلص العبادة لله أربعين يوماً فتح الله قلبه ، وشرح صدره ، وأطلق لسانه بالحكمة ولو كان أعجميًّا غلفاً » .

فمن أجل هذا وجب على الحكماء إذا أرادوا فتح باب الحكمة للمعلمين ، وكشف الأسرار للمريدين ، أن يروّضوهم أولاً ويهذّبوا نفوسهم بالتأديب كيما تصفو نفوسهم ، وتطهّر أخلاقهم ، لأن الحكمة كالعروس تريد لها مجلساً خالياً ، فإنها من كنوز الآخرة . وإن الحكيم إذا لم يفعل ما هو واجب فى الحكمة من رياضة المتعلمين قبل أن يكشف لهم أسرار الحكمة ، فيكون مثله فى ذلك كمثل حاجب ملك ، أذن لقومٍ بُلْهٍ [(٢)] بالدّخول على الملك من غير تأديب ولا ترتيب ، فإنه يستحق العقوبة عليه إن فعل ذلك ، فإذا هو فعل ما قد يجب من تأديبهم ثم لم يفعلوا هم ولا قبلوا منه ، فقد برئ الحكيم من اللوم ، ولزمهم الذّنب ، لأنك إذا قدّمت الطعام والشراب إلى الجائع فقد أشبعته ، فإذا هو لم يأكل حتى مات

---

(١) ق . ك : الأعراف ١٤٢

(٢) جمع أبله .

جوعاً فهو المأخوذ بدمه . « وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُه جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ » وفقك الله أيها الأخ البارّ الرحيم وإيانا للرشاد ، وسدّدك إخواننا حيث كانوا فى البلاد إنه رءوف بالعباد(١) .

إيثار الشباب

يؤثر إخوان الصفاء بث دعوتهم فى نفوس الشباب لأنها أكثر طواعية فى تلقى المبادىء الجديدة واعتناقها من نفوس الشيوخ الجامدة المتعصبة لما علمت وفهمت وانطبعت عليه .

واعلم أيّها الأخ أن من سعادتك أيضاً أن يتفق لك معلم ذكىّ ، جيّد الطبع حسن الخلق صافى الذهن ، محبّ للعلم طالب للحق ، غير متعصّب لرأى من المذاهب .

واعلم أن مثل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم ، واعتقاد من الآراء ، كمثل ورق أبيض نقىّ لم يكتب فيه شىء حقًّا كان أم باطلا ، فقد شغل المكان ومنع أن يكتب فيه شىء آخر ، ويصعب حكّه ومحوه .

فهكذا حكم أفكار النفوس إذا سبق إليها علم من العلوم ، واعتقاد من الآراء ، أو عادة من العادات تمكّن فيها حقًّا كان أو باطلاً ، ويصعب قلعها ومحوها كما قال القائل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبى فارغاً فتمكّنـــا

فإذا كان الأمر كما وصفت ، فينبغى لك أيّها الأخ أن لا تشغل بإصلاح المشايخ الهرمة الذين اعتقدوا من الصبا آراء فاسدة ، وعادات رديئة ، وأخلاقاً وحشة ، فإنهم يتعبونك ثم لا ينصلحون ، وإن صلحوا قليلاً قليلاً فلا يفلحون .

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٧٦ – ٨١

ولكن عليك بالشباب السّالمي الصدور ، الراغبين فى الآداب ، المبتدئين بالنظر فى العلوم ، المريدين طريق الحق والدار الآخرة ، والمؤمنين بيوم الحساب ، المستعملين شرائع الأنبياء عليهم السلام ، الباحثين عن أسرار كتبهم ، التّاركين الهوى والجدل غير متعصّبين على المذاهب .

واعلم أن الله تعالى ما بعث نبيًّا إلا وهو شاب ، ولا أعطى لعبدٍ حكمةً إلا وهو شاب ، كما ذكرهم ومدحهم فقال عزّ اسمه : « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى [1] » وقال تعالى : « إِنَّا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ [2] » وقال أيضاً عزّ وجلّ : « وإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ [3] » .

واعلم أن كل نبيّ بعثه الله فأول من كذّبه مشايخ قومه المتعاطون الفلسفة والنظر والجدل ، كما وصفهم تعالى فقال « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [4] [5] » .

---

(١) ق . ك : الكهف ١٣

(٢) ق . ك : الأنبياء ٦٠

(٣) ق . ك : الكهف ٦٠

(٤) ق . ك : الزخرف ٥٧ ، ٥٨

(٥) الرسائل : ج ٤ ، ص ١١٤ ، ١١٥

٢ – نظام الحلقات

مخاطبة الملوك والسلاطين

كان النظام الذى يجرى عليه إخوان الصفاء فى سبيل بث دعوتهم أن يكون لهم فى مختلف طبقات الأمة أنصار ومريدون ينشرون مذهبهم ويدافعون عنه ويؤلفون حلقات من السلسلة الكبرى التى تلم شعثهم وتجمع شتاتهم . وقد يكون منهم من يخدم الملوك والسلاطين فيوجهون إليه مثل هذه الرسالة .

قد اخترناك أيها الأخ لأمرٍ فيه قُرْبَةٌ(1) إلى الله تعالى ، ونُصرةٌ للدين ، ونصيحة للإخوان ، فكن واثقاً بما اخترناك مغتبطاً به وسِرْ على بركة الله وحسن توفيقه ، متوكلا عليه فى نصرته وتأييده ، إلى أخٍ من إخواننا الفضلاء الكرام ، من كرام الناس ، وتلطّف فى الوصول إليه فى رفقٍ ومداراة حتى تلقاه على خَلْوةٍ من مجلسه ، وفَراغٍ من قلبه ، وطيبةٍ من نفسه ، وتقرأ عليه التّحية والسّلام من إخوانٍ له فضلاء ، وأصدقاء له نصحاء ، من أولاد العلماء وحَمَلة الدين والفقهاء ، وأولاد التجار وأرباب الأموال ، المستبصرين بالعلوم الفلسفية ، والأحكام الشرعيّة ، والآداب الرياضيّة ، مثل الهندسة والنجوم والطب والفراسة والتدبير والسياسة ، وتبشّره بما ألقيناه إليك من الأسرار فى شأنه ، وما يتحقّق من المأمول فى أمره من نُصْرة الدين وفتح البلاد ، وما يكون على يده من صلاح العباد ، مما خبّرت به دلائل القران ، ولوّحت به شواهد الامتحان ، وتعرض عليه التذكرة ليتأملها ويتفكر فيها ، وتعرّفه أن إخوانه الذين وجّهوك إليه من ذلك البلد لما هم عليه من العقل وكرم الأخلاق وحسن الآداب والألفة والاتفاق ، وما يعتقدون فى أمر الدنيا من حسن المعاملة ، لهم مجلس يجتمعون فيه فى الخلوات ، ويتذاكرون

---

(1) القربة : ما يتقرب به إلى الله تعالى من أفعال البر والطاعة .

العلوم و يتحاورون فى الأسرار و يبحثون عن خفيات الأمور ، فتذكروا يوماً فيما بينهم من حوادث الأيام وتغييرات الزمان والخطوب والحِدْثان[1] ، وما تدلّ عليه دلائل القران من تغييرات شرائع الدين والملل ، وتنقّلِ المُلْك والدّول من أمّةٍ إلى أمّة ، ومن بلدٍ إلى بلد ، من كائنٍ فى العالم القريب ، وحادثٍ عجيبٍ فيه صلاح الدّين والدّنيا ، هو تجديد ملك فى المملكة ، وانتقالُ الدولة من أمّة إلى أمّة ، وأن لذلك دلائلَ بيّنة وعلاماتٍ واضحة ، وقالوا قد عرفناها بفراغ عقولنا ، وتجارب الأمور ، واعتبار تصاريف الزمان فيما مضى من الحِدْثان ، وما يعرف منها بالزَّجْر والفال والكهانة والفراسة[2] ، و بدلائل المتحرّكات من النجوم والمنامات مما تدلّ عليه من الكائنات قبل أن تكون . وقد اعتبرنا بهذه الوجوه التى ذكرناها وأشرنا إليها ، حتى عرفنا صاحب الأمر بصفاته ، والسنة والشهر الذى يكون فيه الحادث فى شأنه ، وما نرجو من ذلك من صلاح الدين والدنيا « والله بالغ أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » و إنما أردنا بهذه التذكرة أن تكون لنا بها قُرْبَةٌ إلى الله تعالى ، ونُصْرَةٌ للدين ، وحُرْمَةٌ للإخوان ، ونصيحة لصاحب الأمر ، وقَدَمُ صدقٍ فى الأولين ، ولسان صدقٍ فى الآخرين .

فإن وقعت هذه التذكرة منه مكانها من القَبول ، وسمت نفسه إلى ما أشرنا إليه ، فذلك هو الذى نريده ، و إن توقّف ، وقال : ما علامة ما يقولون ؟ وما تصديق ما يزعمون من الرأى والحديث ؟ فنقول عندنا دلائل واضحة ، و براهين بيّنة ، وعلاماتٌ وشواهدُ يعلمها من كان ينظر فى العلوم كنظرنا ، و يعتبر الأمور كاعتبارنا ، وكان فى المعارف بصيراً مثلنا .

فإن أراد أخونا الفاضل الكريم ، فليبعث إلينا ثقةً من ثِقاته ، وأميناً من

---

(١) حدثان الدهر : نوائبه

(٢) راجع الحواشى ٥ ، ٦ فى صفحة ٢٢ و ١ ، ٢ فى صفحة ٢٣

أمنائه ومن أبناء جنسنا ومَنْ يشا كلنا فى العلوم والمعارف ، ومن يحاجُّنا[1] على ما نقول ، ويناظر على ما نشير إليه ، ليتّضح له حقيقة ما قلنا ، ويتبيّن له التصديق بما أمرنا ، والله الموفّق للصواب[2] .

مخاطبة المتفلسفين والشاكين

وربما لقى المريدون والأنصار عنتاً وحرجاً ممن لا تؤثر فيهم قوة الإقناع وبسط الحجج والبراهين فيشد رؤساء الدعوة أزر هؤلاء الأنصار ويخصونهم بالنصح والإرشاد ويدلونهم على الطريقة المثلى فى مخاطبة المتفلسفين الشاكين ليكسبوهم إلى دعوتهم .

قد فهمنا أيّها الأخ الرّحيم ، أيدكَ الله وإيّانا بروح منه ، ما ذكرتَه ممّا جرى بينك وبين أخٍ من إخواننا من المذاكرة والبحث فى مبادئ الموجودات ، وعلل الكائنات ، وما شَكَوْتَ من صعوبة انقياده إليه من صفوة الأخوة والمعاونة على نُصْرة الأديان النبوية ، وما وصفتَ من شِدَّة استغراقه فى الآراء الفلسفية ، وإعراضه عن معرفة أسرار الكتب الإلهية وتفاسير التنزيلات النبوية ، ومعانى موضوعات الشرائع الناموسية ، وما تتضمّنه من المنافع الجليلة ، والأغراض البعيدة للنفوس المستبصرة من الدلالة لها على الارتقاء إلى المراتب العالية ، والخلاص من نيران الهاوية ، وما ذكرتَ من اعتماده فى البصائر والمعارف على ما يدركه عقله ، وتميّزه بصيرته ، ويؤدى إليه اجتهاده ، وما قلت من تعلّقه بأقاويل الفلاسفة فى آرائهم المختلفة وقياساتهم المتناقضة على أصول لهم متغايرة .

فاصبر عليه أيها الأخ ، ودارهِ[3] بالرّفق ، وذاكرْه بهذه الرسالة ، فلعلّه يتقرّر فِى نفسه ما تدعوه إليه ، ويتصوَّر فِى عقله ما تُشير إليه من الأسرار المصونة المكنونة

---

(١) حاجه حجاجاً ومحاجة : خاصمه .

(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٣٧ و ٢٣٨

(٣) داراه مداراة : لاطفه وخاتله .

التى لا يَمسُّها إلا المطهّرون : فقل له : أَخبرنا أيها الأخ أمقرٌّ أنت بما جاءت به الأنبياء ، عليهم السّلام ، فى تنزيلاتهم من أخبار الملائكة ، وقصة إبليس والجان ، وحديث آدم ، وبدء خلقه ، وسجود الملائكة له ، وأخذ الميثاق على ذرّيته ، وما شاكل ذلك من حديث القيامة والبعث والحشر والحساب والميزان والجواز على الصّراط ، والنجاة من النار ، والثواب والفوز ، والجنة ، ونعيمها وأشباهها ، مما هو مذكور فى التوراة والإنجيل والفرقان ، وغيرها من صحف الأنبياء عليهم السلام ، أم جاحد بها ؟

فإِن كنت مقرًّا بها أو ببعضها فَأَخبرنا أمصدّق متيقّن بحقائقها أم شاكٌّ متحيّر فى معانيها ؟

فإن كنت مُصدِّقاً متيقّناً فأَخبرنا أعالمٌ أنت عارفٌ بها أو غافل ساهٍ عنها ؟ فإن كنت عارفاً عالماً بها فأخبرنا عن الجَنَّة والنّار ، وهل هما موجودتان فى وقتنا هذا أم غير موجودتين ؟ فإن كانتا موجودتين فقل لنا أين هما ، وصف لنا كيفيّتهما ؟ وإن قلتَ إنهما غيرُ موجودتين فما معنى قوله : « يَا آدَمُ اُسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ اُلجَنَّةَ(١) ؟ » إلخ . . .

فصل

اعلم أيّها الأخ أن لكلّ مذهبٍ وأهله رأياً ينفردون به عن غيرهم ، وعلماء وفقهاء يتدارسونه فيما بينهم ، وإِنَّ من رأى إخواننا ، أيّدهم الله ، أَنَّ هذه الأشياء كلها موجودة منذ خلق الله السموات والأرض . ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون ، وهم ينتظرون كونها فى الزّمان المستقبَل ، وهم أهلُ التقليد الذين هم من أمر الدين على العمى .

---

(١) ق . ك : البقرة ٣٥

وأمّا أهل البصيرة الذين هم من أمر الدين على بيان ويقين ومعرفة ، فهم ينتظرون بها انتظار الكشف والبيان كما رأى النبى ، صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم ، ليلة المعراج .

وقد بيّنا فى رسائلنا هذه المعانى ، فإن كنت تعرفُ منها أيُّها الأخ فبين لنا علم هذا على أصل تعرفه على قياس واحد لا يجب أن تَعْدُلَ عنه إذا سألناك ، ولا تُقَلِّد أقاويل الفلاسفة المختلفى الآراء المتناقضى الأقاويل .

فقد رُوى أنَّه ذُكِرَ فى مجلس النبىّ (صلعم) أرسطاطاليس فقال النبىّ عليه السّلام « لو عاشَ حَتى يعْرِفَ ما جِئْتُ به لاَتْبعنى على دينى » .

فينبغى لمن هو متزىٍّ[1] بزىّ المسلمين ، ومعتصمٌ بعُرْوة الإسلام ، منسوبٌ إلى أمّة محمد (صلعم) ، مقرٌّ بما جاء به من التّنزيل ، وما فى تنزيله من أخبار أمور قد مضت مع الزّمان الماضى ، مثل بدء كون العالم ، وخلق السموات والأرض ، وحديث آدم ، وقصة إبليس وعصيانه ، وسجود الملائكة وطاعتهم ، وأخذ الميثاق على ذرّية آدم ، وما شاكل ذلك من نظائره ، مما هو موجود فى التَّوراة والإنجيل وصُحُفِ الأنبياء الأوّلين ، وإنذارهم أممهم بأمر القيامة ، وأخبار البعث والنشور والحشر والحساب والميزان والقصاص والجواز على الصراط والنجاة من النار والفوز بالجنة ونعيم أهلها والنار وأليم عذابها ، وما شاكل ذلك من الأمور المنتظرة فى الزمان المستقبَل ، وقد دعينا إلى الإقرار بها ، والاستعداد لها ، فمن أعرض عنها كلّها حتى لا يعرف من حقائقها حرفاً واحداً غير الإقرار باللسان ، مع حيرة فى نفسه ، وشكوك فى قلبه ، ومع هذه كلها يدّعى معرفة أسرار الكتب الفلسفية ، ورموزات الفلاسفة ، وتدقيق المعانى التى فيها ، مع كثرة اختلافاتهم ،

---

(١) تزيا بزى القوم : لبس لبسهم .

ومناقضات بعضهم لبعض ، مع حيرة أتباعهم فيها ، ولا ينظر ولا يتفكّر أن الأنبياء كلَّهم ، مع تباعـد الأزمان فيما بينهم ، ومع اختلافات لغاتهم وموضوعات شرائعهم ، وافتنان سننهم ، كيف هم متّفقون على رأى واحد ، ودين واحد ، ومقصد واحد ، فيما يشيرون إليه فى دعوتهم الأمم إلى أمر الآخرة ، وأهوال القيامة ، وجزاء الأعمال فيها إنْ خيراً فخيراً ، وإنْ شرًّا فشرًّا .

وقد بيّنا فى الرِّسالة الثالثة الرأىَ الذى يتّفقون عليه : أعنى الأنبياء كلَّهم ، وهى اثنتا عشرة خصلة هى العمدة والأصل فيما يدعون إليه من الدين ، وإن اختلفت شرائعهم وسُنَنهم ، كما ذكر الله تعالى فقال : « أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ[1] »

فدين الأنبياء دينٌ واحد ، ومسلكهم جميعاً مسلكٌ واحد ، ومقصدهم مقصدٌ واحد ، وغرضٌ واحد ، وإن اختلفت شرائعهم صلواتُ الله عليهم .

وأمّا الفلاسفة فليست شريعتهم واحدة ، ولا دينُهم واحداً ، فكيف يرضى العاقل عن أسرار كتب الفلاسفة مع اختلافهم ، ويعرض عن البحث وعن معرفة أسرار كتب الأنبياء عليهم السّلام مع اتفاقها ؟

واعلم أيها الأخ أنه إنما ذهب عن أكثر المتفلسفين والباحثين حقائق الأشياء معرفةُ كتب الأنبياء ، عليهم الصَّلاة والسّلام ، لتركهم البحثَ عنها ، وإعراضِهم عن النظر فيها ، ولقصور فهمهم عن تصورها ، لأنها مأخوذة عن الملائكة الذين هم فى الملأ الأعلى ، وأهل السّموات ، وسكّان الأفلاك[2] .

---

(١) ق . ك : الشورى ١٣

(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٢٥ – ٢٢٨

٣ – مراتب الأعضاء

درجات السن والمعرفة

من الطبيعى أن ينقسم إخوان الصفاء ككل جماعة أخرى إلى درجات ينتشر عليها الأعضاء بحسب مكانهم من الدعوة ، وتتدرج تلك المراتب صعداً عند إخوان الصفاء وفقاً لعمر العضو ومبلغ تمكنه من العلوم والمعارف وسمو الروح .

واعلم أيُّها الأخ علماً يقيناً أنَّ هذه المدينة مفروغٌ من بنائها على هذا الوصف ، ولكن لا يمكن أحداً أنْ يدخل مدينتَنا هذه ما لم يكن علمه مساوياً لعلمنا ، لأن حولَها أربعةَ أسوار مبنيّة من جهالات الناس ، ما بين كلِّ سورين خَنْدقٌ من سوءِ أعمالهم وفسادِ آرائهم ورداءةِ أخلاقهم ، وقد ذَكرنا ذلك فيما تقدّم ، فمن عزم على دخولها فعليه بعلم النفس ومعرفة جوهرها ، فإنه أولى بأن يُسْتفتح من مدينتنا .

وقد بيّنّا كلَّ ما يحتاجُ إخوانُنا ، أيّدهم الله ، إليه من هذا العلم فى إحدى وخمسين رسالةً ، فانظرْ فيها أيُّها الأخ إن لم يكن يستوى لك الحضورُ فى مجلسنا ، وأَعْرِضها على إخوانك الّذين ترتضيهم ، وتأنسُ منهم الرُّشْد والسَّداد ، فلعلكم تُوفَّقون لفهم معانى ما ذكرنا فيها من معانى فنون العلم ، وغرائب الحكم ، وتُرشدون إلى العمل بما يقرّبكم إلى الله زُلْفى [1] وينجيّكم من نار جهنّم ، عالم الكون والفساد ، وتَهْتدون للصُّعود إلى ملكوت السّماء ، عالم الأفلاك ، والدّجول فى زمرة الملائكة الذين يحملون العرش ، ويسبّحون بحمد ربّهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا (الآيات ، إلى قوله وذلك الفوز العظيم [2]) .

---

(١) زلفى : قربة .

(٢) ق . ك : النساء ١٣

واعلم أيُّها الأخ البارّ الرحيم أن قوّة نفوس إخواننا فى هذا الأمر الذى نشير إليه ، ونحثُّ عليه ، على أربع مراتب : أوّلُها صفاء جواهر نفوسهم ، وجودة القَبول ، وسُرعة التصوّر ، وهى مرتبة أرباب ذوى الصنائع فى مدينتنا التى ذكرناها فى الرسالة الثانية ، وهى القوة العاقلة المميّزة لمعانى المحسوسات الواردة على القوة الناطقة بعد خمسَ عشرةَ سنة من مولد الجسد ، وإلى هذا أشارَ بقوله : « وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَالُ مِنْكُمُ ٱلْحُلُمَ[1] » ، وهم الذين نسمّيهم فى رسائلنا : « إِخواننا الأبرار الرّحماء » .

وفوقَ هذه المرتبة مرتبةُ الرّؤساء ذوى السياسة ، وهى مراعاةُ الإخوان ، وسخاء النّفس ، وإعطاء الفيض بالشفقة والرحمة والتحنن على الإخوان ، وهى القوّةُ الحكمية الواردةُ على القوة العاقلة بعد ثلاثين سنةً من مولد الجسد . وإليه أشار بقوله تعالى : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا[2] » ، وهم الذين نسمّيهم فى رسائلنا « إخواننا الأخيار الفضلاء » .

والمرتبةُ الثالث فوق هذه ، وهى مرتبةُ الملوك ذوى السّلطان والأمر والنهى والنصر ، والقيام بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرّفق واللُّطف والمداراة فى إصلاحه ؛ وهى القوّة الناموسيةُ الواردة على النفس بعد مولد الجسد بأربعين سنةً ، وإليها أشار بقوله تعالى : « حَتَّى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ ، وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ[3] » الآية ، وهم الذين نسمّيهم فى رسائلنا : « إخواننا الفضلاء الكرام » .

---

(١) ق . ك : النور ٥٩

(٢) ق . ك : يوسف ٢٢

(٣) ق . ك : الأحقاف ١٥

والرابعة فوق هذه ، وهى التى ندعو إليها إخواننا كلَّهم ، فى أى مرتبةٍ كانوا ، وهى التّسليم ، وقَبولُ التأييد ، ومشاهدةُ الحقِّ عِياناً ، وهى القوّةُ الملكية الواردة بعد خمسين سنةً من مولد الجسد ، وهى الممهدة للمعاد ، والمقرّبة بمفارقة الهيولى ، وعليها ترد قوة المعراج ، وبها تصعد إلى ملكوت السماء ، فَتُشاهد أحوالَ القِيامة من البعث والحشر والنشر والحساب والميزان والجواز على الصّراط والنجاة من النيران ، ودخول الجنان ، ومجاورة الرحمن ذى الجلال والإكرام .

وإلى هذه المرتبة أشار بقوله تعالى : « يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إلى رَبِّكِ رَاضِيةً مَرضِيّةً[١] » الآية .

وإليها أشار إبراهيم عليه السّلام : « وَٱجْعَلْنى مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ[٢] » .

وإليها أشار بقوله يوسف عليه السلام : « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ[٣] » الآية .

وإليها أشار بقوله المسيح عليه السلام للحَوَاريّين[٤] : « إنى إذا فارقتُ جسَدى ، وهو هذا الهيكلُ ، فَأنا واقفٌ فى الهَواء عن يمينِ العَرْش ، بينَ يَدى ٱلْحَقّ أبى وأبيكم ، أسْتَشْفِعُ لكم ، فَاذْهَبوا إلى الملوك فى الأطراف ، وادْعوهم إلى الله عزّ وجلّ ولا تهابوهم ، فإنى مَعَكُمْ حيثما ذَهَبْتم بالنّصر والتأييد لكم » .

وإليها أشار محمد (صلعم) : « إنّكم تَردون غداً » ، وأحاديثُ مرويّةٌ كلُّها مشهورةٌ عند أصحاب الحديث .

وإليها أشار سُقراطُ بقوله يوم سُقى السُّمَّ : « إنى وإنْ كنتُ أفارقكم إخواناً فضلاءَ ، فإنّى ذاهبٌ إلى إخوانٍ كرام قد تقدّمونا » ، فى حديث طويل .

---

(١) ق . ك : الفجر ٢٧ — ٢٨

(٢) ق . ك : الشعراء ٨٥

(٣) ق . ك : يوسف ١٠١

(٤) الحواريون : م . الحوارى وهو نصير الأنبياء ، والحواريون هم رسل السيد المسيح .

وإليها أشارَ فيثاغورث فى الرسالة الذهبية فى آخرها : « إنّك إنْ فعلْتَ ما أُوصيك فَإنَّكَ عندَ مفارقةِ الجسَدِ تبقى فى الهواء » .

وإليها أشارَ بلوهر حينَ قال : إن المَلِكَ قال لوزيره : وَمَنْ أهْلُ هذه المقالة ؟ قال : « هُمُ الَّذين يعرفونَ ملكوتَ السماء » فى حديث طويل .

وإليها ندعو إخوانَنا جميعاً ، والله يهدى من يشاء إلى صِراطٍ مستقيم ، وآياتٌ كثيرةٌ فى هذ المعنى ، وهىَ كل آية فيها صفة الجِنان وأهلِها ونعيمها(١) .

٤ – غايتهم الظاهرة

تنقية الشريعة من الضلالات

لئن كان لإخوان الصفاء غايات خفية سعوا إليها ووقفوا عليها جهدهم وجهادهم إن الغاية التى أعلنوها غير مرة فى رسائلهم هى رغبتهم فى نشر الحكمة وتنقية الشريعة من الضلالات .

واعلم أيّها الأخ أنّا لا نُعادى علماً من العلوم ، ولا نتعصّب على مذهب من المذاهب ، ولا نهجر كتاباً من كتب الحكماء والفلاسفة مما وضعوه وألّفوه فى فنون العلم ، وما استخرجوه بعقولهم وتفحّصهم من لطيف المعانى .

وأما معتمدُنا ومعوَّلُنا وبناء أمرنا فعلى كتب الأنبياء ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وما جاءوا به من التّنزيل ، وما ألْقَتْ إليهم الملائكة من الأنباء والإلهام والوحى .

واعلم أيّها الأخ ، أيّدك الله وإيانا بروح منه ، أن لنا كتباً نقرؤها مما شاهدها النّاس ولا يحسنون قراءتها ، وهى صورة أشكال الموجودات بما هى عليه الآن من تركيبِ الأفلاك ، وأقسامِ البروج ، وحركات الكواكب ، وأمهات الأركان ،

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٢١ – ٢٢٤

واختلاف جواهر المعادن ، وفنون أشكال النبات ، وعجائب هيا كل الحيوانات .
ولنا كتابٌ آخر لا يشاركنا فيه غيرُنا ولا يفهمه سوانا : وهو معرفة جواهر النفوس ، ومراتب مقاماتها ، واستيلاء بعضها على بعض ، وافتنان قواها ، وتأثيرات أفعالها فى الأجسام من الأفلاك والكواكب والأركان والمعادن والنّبات والحيوانات وطبقات الناس من الأنبياء والحكماء والملوك وأتباعهم والسُّوقة وأعوانهم ، فإن نَشَطْت أيها الأخ البارّ الرحيم إلى قراءة هذه الكتب ، أنتَ وإخوانك لتعلم ما فيها ، وتفهم معانيها ، وتعرف أسرارها ، فهلمّ إلى حضور مجلس إخوان لك فضلاء ، وأصدقاء لك كرام ، تسمع أقاويلهم ، وترى شمائلهم ، وتعرف سيرتهم ، لعلك تتخلّق بأخلاقهم ، وتتهذّب بآدابهم ، فتنتبه نفسُك من نوم الغفلة ، وتستيقظ من رقدةِ الجهالة ، وينشرح صدرك ، ويصفو ذهنك ، وتفتح عين البصيرة من قلبك ، فترى ما قد أبصروه بعيون قلوبهم ، وتشاهد ما قد عاينوه بصفاء جواهر نفوسهم ، وتنظر إلى ما نظروا إليه بنور عقولهم ، وتفهم معانى هذه الكُتب الأربعة كما فهموها ، وتُؤيد بروح الحياة ، وتعيش عيش العلماء ، وتحيا حياة الشّهداء ، وتوفّق للصعود إلى ملكوت السّماء ، وتنظر إلى الملأ الأعلى « وَتَرى المَلائِكةَ حافّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١) » .

فصل

واعلم أيّها الأخ البارّ الرّحيم ، أيدك الله وإيّانا بروح منه ، أنه لا يَحْسُنُ بنا أن ندّعى معرفة حقائق هذه الأشياء ونحن لا نعرف أنفسنا ، لأن مَثَلَ من

(١) ق . ك : الزمر ٧٥

يدّعى معرفة حقائق الأشياء ولا يعرف نفسه كمَثَل من يطعم الناسَ وهو جائع ، وكمن يكسو غيره وهو عُريان ، وكمن يداوى النّاس وهو عليل ، وكمن يهدى الناس إلى الطريق وهو لا يعرف طريق بيته ، فقد عُلِمَ أنَّ الإنسان فى مثل هذه الأشياء ينبغى له أن يبتدئ أولاً بنفسه ثم بغيره .

واعلم أيّها الأخ البارّ الرحيم ، أيدك الله وإيَّانا بروح منه ، أن كلَّ واحدٍ منَّا هو مركّب ومؤلَّف من جوهرين متباينين متضادّين : أحدهما هو هذا الجسد الغليظ المحسوس المؤلف من اللحم والدم والعظم والجلد والعصب والعروق وما يشا كل ذلك ، وهذه كلّها أجسام أرضية ميتةٌ مظلمة فاسدة ، وأمّا الجوهرُ الآخر فهو هذا الروح اللطيف ، أعنى النفس ، فهى جوهرة سماوية روحانية نورانية علّامة درّاكةٌ صورَ الأشياء .

واعلم أنَّ هذا الجسد لهذه النفس فى المثال بمنزلة دار تُسكن ، أو دابة تركب ، أو آلة تُستعمل ، وما دامت هذه النفس مع هذا الجسد مربوطةً به إلى الوقت المعلوم فلا بدَّ لنا من النظر فيما تَصْلُح به معيشةُ الحياة الدّنيا ، وما تُنال به النجاةُ والفوزُ فى الآخرة .

واعلم أنَّ هذين الأمرين لا يجتمعان ولا يتمّان إلا بالمعاونة ، والمعاونة لا تكون إلا بين اثنين أو أكثر من ذلك ، وليس شىء أبلغ على المعاونة من أن تجتمع قوى الأجساد المتفرقة ، وتصيرَ قوةً واحدة ، وتتّفق تدابير النفوس المؤتلفة ، وتصير تدبيراً واحداً ، حتى تكون كلُّها كأنّها جسد واحد ونفس واحدة ، فعند ذلك تغلب كلَّ من رام غلبتها ، وتقهر كلَّ من خالفها وضادّها .

فهلم بنا يا أخى ، أَيدك الله وإيانا بروح منه ، لنجتمع ونتعاون على ذلك . وينبغى أن تعلم أيها الأخ أنه لا يجتمع اثنان على أمر من الأمور إلا ولاجتماعهما علة تجمعهما ، وسبب يحفظهما على تلك الحال . فما دامت تلك العلة باقية ، وذلك

السبب ثابتاً دامت لهما تلك الحال ، و إن بطلت تلك العلة ، وانقطع ذلك السبب تفرّقا بعد اجتماعهما ، وتنافرا بعد إلفهما .

واعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله و إيانا بروح منه ، أنه ليس من جماعة يجتمعون على تعاونٍ فى أمر من أمور الدّنيا والآخرة أشد نصيحة بعضهم لبعض من تعاون إخوان الصفاء ! وينبغى أن تعلم أن العِلة التى تجمع بين إخوان الصفاء هى أن يرى ويعلم كلٌّ واحد منهم أنه لا يتمّ له ما يريد من صلاح معيشة الدّنيا ، ونيل الفوز والنّجاة فى الآخرة ، إلا بمعاونة كلّ واحد منهم لصاحبه . وأمّا السببُ الذى يحفظهم على تلك الحال فهو المحبّة والرحمة والشفقة والرِّفق من كلّ واحد منهم ، والمساواةُ فيما يريد ويحبّ ويبغض ويكره لنفسه .

واعلم أن هذه الشرائط تتمّ وتدوم إذا علم كلٌّ واحد منهم بأن أنفسهم نفسٌ واحدة ، و إن كانت أجسادهم متفرِّقة .

واعلم أيها الأخ أن أكثر الناس يريدون ويتمنَّوْن أن تكون بينهم صلةٌ وصداقة وأخوّة لا تكدّرها تصاريف الزّمان ، ولكنهم لا يعرفون ما العلةُ المانعة لهم عن ذلك ، وما السببُ الموجب لكونها .

فينبغى أن تعلم أيها الأخ أنَّ المانعَ للناس أن يكونوا أصدقاء ، والمانع للأصدقاء أن يكونوا إخواناً أصفياء ، على ما يقتضيه العقل ، هو إمّا عِلةٌ غير موجودة ، و إمّا سبب غير مفقود .

فإن كانت علَّة غير موجودة فما هى لنطلبها ؟ و إن كان سبباً غير مفقود فما هو لنقطعَه ونزيله ؟

و ينبغى أن تعلم أيّها الأخ أنَّ المانع من ذلك هو أسباب موجودةٌ نحتاج أن نُقلع عن تلك الأسباب حسب لا غير . وهى أربعة أجناس : أحدها سوءُ أعمالهم ، والثانى فساد آرائهم ، والثالث رداءة أخلاقهم ، والرابع تراكُمُ جهالاتهم .

واعلم أنَّ سوء أعمالهم يكون بحسَب آرائهم الفاسدة التى اعتقدوها قبل بحثهم حقائق الأشياء ، وأن آراءهم الفاسدة استحكمت فى ضمائرهم بحسَب أخلاقهم الرديئة التى اعتادوها منذ الصِّبا ، وأن أخلاقهم انطبعت فى نفوسهم بحسب جهالتهم المتراكمة التى غشيتهم فى أوّل الأمر .

فينبغى لنا أيّها الأخ أنْ نعلم أنه إذا أردنا أن نكون إخواناً أصفياء أن نبتدئ أوّلا بالكشف عن الجهالات المتراكمة التى غَشِيتنا من أوّل الأمر إذْ هى الأصل فى الشّرور .

واعلم أنّ الجهالات التى غشيتنا المانعة لنا من الصّداقة وصُفوَة الأخوّة هى أربع جَهالات : إحداها أنهم لا يعرفون ما الفرقُ بين النفس والجسد ، والثانية أنهم لا يدركون كيفَ رباطُ النفس بالجسد ، والثالثة أنَّهم لا يدرون لم رُبطت بالجسد ، والرابعة أنَّهم لا يدرون كيف تنبعث النفس من الجسد ! فلا جَرَم أن النفس ، ما لم تنبعثْ من الجسد ، لا تعرف الفوز والنجاة والخلود فى النعيم فهى مخلّدة فى الجحيم فى عذابٍ أليم .

وينبغى لنا أيّها الأخ بعد اجتماعنا على الشّرائط التى تقدّمت من صُفْوَة الإخوان أن نتعاون ونجمع قوّة أجسادنا ، ونجعلها قوة واحدة ، ونرتّبَ تدبير نفوسنا تدبيراً واحداً ، ونبنى مدينة فاضلة روحانية ، ويكونَ بناء هذه المدينة فى مملكة صاحب الناموس الأكبر الذى يملك النفوس والأجساد ، لأنّ من مَلَكَ النّفوس مَلَكَ الأجساد ، ومن لم يملك النّفوس لم يملك الاجساد .

وينبغى أن يكون أهلُ هذه المدينة قوماً أخياراً حكماء فضلاء مستبصرين بأمور النّفوس وحالاتها ، وما يتبع ذلك من أمور الأجساد وحالاتها .

وينبغى أن يكون لأهل المدينة سيرةٌ جميلة كريمة حسنة يتعاملون بها فيما بينهم ، وأن يكونَ لهم سيرةٌ أخرى يعاملون بها أهل المدن الجائرة ، ولا ينبغى أن يكون بِناء هذه المدينة فى الأرض حيثُ تكون أخلاق أهل سائر المدن الجائرة . ولا ينبغى

أيضاً أن يكون بناؤها على وجه الماء لأنه يصيبها من الأمواج والاضطراب ما يصيب أصل المدن التى على السواحل من البحار، ولا ينبغى أن يكون بناء هذه المدينة فى الهواء مرتفعاً لـكيلا يصعدَ إليها دخانُ المدن الجائرة فتتكدّر أهويتها ، وينبغى أن تكون مشرفة على سائر المدن ليكون أهلها يشاهدون حالاتِ أهل سائر المدن فى دائم الأوقات ، وينبغى أن يكون أساسُ هذه المدينة على تقوى الله كيلا ينهارَ بناؤها ، وأن يُشيّد بناؤها على الصّدق فى الأقاويل ، والتَّصْديق فى الضمائر ، وتقومَ أركانها على الوفاء والأمانة كيما تدوم ، ويكون كمالها على الغرض فى الغاية القصوى التى هى الخلود فى النعيم .

فإذا فرغنا من بنائها بنينا المركب الذى هو سفينة النّجاة حتى تكون السفينة مستقلّة بثِقَل الأجساد ، وتكون المدينة مأوى الأرواح .

وينبغى أن يكون تعاون أهل المدينة مرتّباً أربع مراتبَ : إحداها مرتبةُ أرباب الأركان الأربعة ذوى الصنائع ، والثانية مرتبة ذوى الرياسات ، والثالثة مرتبة الملوك ذوى الأمر والنهى ، والرابعة مرتبة الإلهيين ذوى المشيئة والإرادة .

وينبغى أن يكون تدبير ذوى الصنائع جارياً فى المرؤوسين كسَرَيان الضوء فى الهواء ، وكسَرَيان القوة النامية فى الأركان الأربعة التى هى النار والهواء والماء والأرض ، ويكونَ سَريانُ سياسة ذوى الرياسات سارياً فى أرباب ذوى الصنائع كسَريان الألوان فى الضياء ، أو كسَريان القوة الحيوانية فى القوة النامية ، ويكون نفاذ أمر الملوك ذوى السّلطان سارياً فى الرؤساء ذوى السياسة كسَريان القوة الباصرة فى إدراك الألوان ، وكسَريان القوة الناطقة فى القوة الحيوانية ، ويكون سَريان مشيئة الإلهيين ذوى الإرادة سارياً فى الملوك ذوى السلطان كسريان العقل فى المعقولات ، أو كسريان القوة الملكية فى القوة الناطقة .

فإذا انتظم أمر المدينة على هذه الشرائط فهى السّيرة الكريمة الحسنة التى يتعامل بها أهل المدينة فيما بينهم [1] .

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢١٦ – ٢٢١

٥ – غايتهم الباطنة

ا – الميل إلى العلوية

أثر الموسيقى فى النفوس

اعتمد إخوان الصفاء على الغايات الظاهرة لتحقيق الغايات الباطنة و بث معتقداتهم فنراهم يغتنمون فرصة الكلام على الموسيقى ليدسوا فيه نغمات خافتة من ميلهم إلى العلوية وتشيعهم لها .

. . . واعلم يا أخى أنّ لِكلِّ نفسٍ من المؤمنين أبوين فى عالم الأرواح ، كما أنّ لأجسادهم أبوين فى عالم الأجساد كما قال رسول الله (صلعم) لعلىّ رضى الله عنه : « أنا وَأنْتَ يا علىّ أبوا هٰذهِ الأمّة ؟ قال الله تعالى « مِلّةَ أبيكمْ إبراهيمَ هُوَ سَمّاكُمُ المُسْلِمينَ [١] » . وهذه الأبوّة هى روحانية لا جسمانية . فنرجع إلى ما كنّا فيه فنقول : إن الحكماء الموسيقاريين إنما اقتصروا من أوتار العود على أربعة لا أقلّ ولا أكثرَ لتكون مصنوعاتهم مماثلةً للأمور الطبيعية التى دون فلك القمر ، اقتداءً بحكمة البارى جَلَّ ثناؤه كما بيّنّا فى رسالة الأرثماطيقى . فوَتَرُ الزير [٢] مماثلٌ لركن النار ، ونغمتُه مناسبةٌ لحرارتها وحدّتها ، والْمَثْنى [٣] مماثلٌ لركن الهواء ، ونغمتُه مناسبةٌ لرطوبة الهواء ولينه ، والمِثْلَث [٤] مماثلٌ لركن الماء ، ونغمته مناسبةٌ لرطوبة الماء وبرودته ، والبمّ [٥] مماثلٌ لركن الأرض ، ونغمته مماثلةٌ لثِقَل الأرض وغِلَظها . وهذه الأوصاف لها بِحَسَبِ مُناسبة بعضها إلى بعض ،

---

(١) ق . ك : الحج ٧٨

(٢) أوتار العدد أربعة : الزير والمثنى والمثلث والبم . والزير هو الوتر الدقيق فيه .

(٣) المثنى هو ما بعد الأول من أوتار العدد . ج . المثانى

(٤) المثلث ، ثالث أوتار العود . ج . المثالث .

(٥) البم : أغلظ أوتار العود .

وبحسب تأثيرات نغماتها فى أمزجة طباع المستمعين لها ، وذلك أنَّ نغمة الزير تقوّى خلط الصفراء(١) ، وتزيد فى قوتها ، وتأثيرها ، وتضاد خلط البلغم(٢) وتلطّفه ، ونغمةَ المثنى تقوّى خلط الدم ، وتزيد فى قوته وتأثيره ، وتضادّ خلط السوداء(٣) ، وترقّقه وتلينه ، ونغمة المثلث تقوّى خلط البلغم ، وتزيد فى قوته وتأثيره ، وتضادّ خلط الصفراء وتكسر حِدَّتها ، ونغمة البمّ تقوّى خلط السوداء وتزيد فى قوّتها وتأثيرها ، وتضاد خلط الدم ، وتسكِّن فورانَه . فَإذا أُلِّفت هذه النغماتُ فى الألحان المشاكلة لها ، وأُسْتعملت تلك الألحان فى أوقات اللَّيل والنهار المضادة طبيعتها طبيعة الأمراض الغالبة ، والعلل العارضة ، سكَّنَتْها ، وكسرت سورتها(٤) ، وخففَّت على المرضى آلامَهم لأن الأشياء المتشاكلة فى الطّباع إذا كثُرَتْ واجتمعت قويت أفعالها ، وظهرت تأثيراتها ، وغلبت أضدادها ، كما يعرف النّاس مثل ذلك فى الحروب والخصومات .

فقد تَبَيَّنَ بما ذكرنا طرفٌ من حِكمة الحكماء الموسيقيين المستعملين لها فى المارستانات(٥) فى الأوقات المضادّة لطبيعة الأمراض والأعراض والأعلال . وهم اقتصروا على أربعة أوتار لا أكثرَ ولا أقلّ ، فأمّا العلة التى من أجلها جعلوا غِلَظ كلّ وَترٍ مِثلَ غِلَظ الذى تحته ومثلَ ثُلثه ، فذلك منهم أيضاً اقتداء بحكمة البارى جلّ ثناؤه ، واتِّباعٌ لآثار صنعه فى المصنوعات الطبيعية ، وذلك أن الحكماء الطبيعيين ذكروا أن أقطار أُكَر(٦) الأركان الأربعة التى هى النار والهواء والماء

---

(١) الصفراء : هى أحد الأخلاط الأربعة التى تتألف منها أنسجة الجسم .

(٢) البلغم : خلط من أخلاط البدن الأربعة فى عرف الأقدمين .

(٣) السوداء : خلط مقره فى الطحال .

(٤) السورة : الحدة .

(٥) المارستانات : م . مارستان ، دار المرضى ، المستشفى .

(٦) أكر : م . أكرة ، كل جسم مستدير .

والأرض ، كلٌّ واحد منها مِثلُ الذى تحته ومثلُ ثُلْثه فى الـكيفية ، أعنى فى اللَّطافة والغِلَظ ، فقالوا إن قُطْرَ كُرَة الأثير ، أعنى كرة النار التى دون فلك القمر ، مثلُ قُطْر كرة الزّمهرير ومثلُ ثُلْثها ، وقطر كرَة الزّمهرير مثلُ قُطْر كرة النسيم ومثل ثلثها ، وقطر كرة النَّسيم مثل قُطْر كرَة الماء ومثل ثلثها ، وقطر كرة الماء مثل قطر كرة الأرض ومثل ثلثها . ومعنى هذه النسبة أنَّ جوهر النار فى اللّطافة مثلُ جوهر الهواء ومثلُ ثلثه ، وجوهر الهواء فى اللَّطافة مثل جوهر الماء ومثل ثلثه ، وجوهر الماء فى اللطافة مثل جوهر الأرض ومثل ثلثها . وأمّا علة شدِّهم الزِّير الذى هو مماثلٌ لركن النّار ، ونغمتُه مماثلةٌ لحرارة النّار وحدَّتها ، تحت الأوتار كلّها ، وشدِّهم البمّ المماثل لركن الأرض فوقها كلها ، والمثنى مما يلى الزّير ، والمِثلث مما يلى البمّ ، فهى أيضاً لعلتين اثنتين : إحداهما أن نغمة الزّير حادَّة خفيفة تتحرّك علوًّا ، ونغمة البمّ غليظة ثقيلة تتحرّك إلى أسفل ، فيكون ذلك أمكن لمزاجهما واتحادهما . وكذلك حال المثنى والمثلث . والعِلة الأخرى أن نسبة غِلَظ الزّير إلى غِلَظ المَثْنى ، والمَثنى إلى المِثْلث ، والمِثْلث إلى البمّ ، كنسبة قطر الأرض إلى قطر كرة النسيم ، وكرة النسيم إلى كرة الزّمهرير ، والزّمهرير إلى الأثير . فهذا كان سبب شدِّهم لها على هذا الترتيب . وأمّا اُستِعمالهم نسبة الثّمن فى نغمة الأوتار دون الخمس والسدس والسبع ، وتفضيلهم إياها فمن أَجل أَنها مشتقّة من الثمانية ، والثمانية هى أول عددٍ مكعَّب ، وأيضاً فإن الستة لما كانت أول عدد تام ، كانت الأشكالُ ذواتُ السّطوح الستّة أفضلَها ، والمقدَّمُ عليها هو المكعب ، لما فيه من التساوى ، كما بيّنا فى رسالة الجومطريا . . .

. . . فقد تبيّنَ بما ذكرنا أنَّ جملة جسم العالم ، بجميع أفلاكه ، وأشخاص كواكبه وأركانها الأربعة ، وتركيب بعضها جوف بعض ، مركبةٌ ومؤلفةٌ ومصنوعة وموضوعة بعضُها من بعض على هذه النسب المذكورة المقدَّم ذكرُها ،

وأنَّ جملة جسم العالم يجرى مجرى جسم حيوان واحد ، وإنسان واحد ، ومدينة واحدة ، وأنّ مدبرها ومصوّرها ومركبها ومؤلّفها ومبدعها ومخترعها واحد لا شريك له ، وهذا كان أحد أغراضنا فى هذه الرسالة . ومن فضيلة الثمانية أيضاً أنَّك إذا تأملت يا أخى ، أيّدك الله وإيانا بروح منه ، وتصفّحتَ الموجودات وعنصر الكائنات الفاسدات وجدتَ موجودات كثيرة مُثمّنات كطبائع الأركان : الحارّ الرطب ، والبارد اليابس ، والبارد الرطب ، والحارّ اليابس ، ثمانية وهى أصل الموجودات الطبيعية وعنصر الكائنات الفاسدات . وأيضاً من فضيلة الثمانية أنك تجد مناظرات الكواكب إلى ثمانية مواضعَ فى الفلك مخصوصَة دون غيرها وهى: المركز والمقابلة والتثليثان والتربيعان والتسديسان . . . وهذه الثمانية هى أيضاً أحد أسباب الكائنات الفاسدات التى دون فلك القمر . وإذا تأملت أيضاً واعتبرت وجدت الثمانية والعشرين حرفاً التى فى اللغة العربية المماثلة لثمان وعشرين منزلةً من منازل القمر ، هجاؤها ثمانية أحرف وهى (ا ل ف ى م ن د و) . ومفاعيل أشعار العرب أيضاً ثمانية أجزاء وهى أجزاء العروض وأجناس ألحان غنائهم أيضاً ثمانية كما سنبيّن فى فصل آخر . وقد قيل إن للجِنان ثمانِيَ مراتب ، وحملة العرش ثمانية والنيران سبعة أبواب ، وقد بيّنّا فى رسالة البعث والقيامة حقيقتها . وعلى هذا القياس يا أخى إذا تأمّلت الموجودات ، وتصفّحت أحوال الكائنات وجدتَ أشياء كثيرةً ثنائياتٍ وثلاثيات ورباعيات وخماسيات وسداسيات وسباعيات وثمانيات ومتسعات ومعشرات ، وما زاد على ذلك بالغاً ما بلغ . وإنما أردنا بذكر المثمنات أن ننبهك من نوم الغفلة ، ورقدة الجهالة ، ولتعلم أن المسبعة الذين قد شُغفوا بذكر المسبعات وتفضيلها على غيرها ، إنما كان نظرهم جزئيًّا وكلامهم غير كلّى ، وكذلك حكم الثنوية فى المثنويات ، والنصارى فى تثليثهم ، والطبيعيين فى مربعاتهم ، والخُرّمية فى مخمّساتهم ، والهند فى

مسدساتهم ، والكيالية فى متسعاتهم ، وليس هذا مذهب إخواننا الكرام ، أيّدهم الله و إيانا بروح منه ، حيث كانوا فى البلاد ، بل نظرُهم كلّى ، وبحثهم عمومى ، وعلمهم جامع ، ومعرفتهم شاملة .

ولنعد الآن إلى ما كنا فيه فنقول : قد تبيّن إذاً بما ذكرنا طرف من صفة العود وكميّة أوتاره وتناسب ما بين غلاظها ودقاقها ، وكمية دساتينها[١] ، وكيفية شدها ، وما بينها من التناسب ، وكمية نغمات نقرات أوتاره مطلقاً ومزموماً ، وما بينها من التناسب ، فإن أحكم المصنوعات ، وأتقن المركبات ، وأحسن المؤلفات ، ما كان تأليف أجزائه وهيئة تركيبه على النسبة الأفضل ، ومن أجل هذا صارت الألحان تستلذها أكثر المسامع ، وتستحسن صفتها واستعمالها أكثر العقول ، ويغنى بها فى مجالس الملوك والرؤساء[٢] .

فصل

واْعلم يا أخى أيّدك الله و إيّانا بروح منه ، أن الله جلّ جلاله ، جعل بواجب حكمته لكل جنسٍ من الموجودات حاسّة مختصّة بإدراكها، وقوة من قوى النفس تنالها بها وتعرفها بطريقها ، لا تُنال بطريقة أخرى ، وجعل أيضاً فى جبلة كل حاسّة درّاكة أو قوة علامة أن تستلذ من إدراك محسوساتها ، وتتشوّق إليها ، إذا فقدتها ، وملّت منها إذا دامت عليها ، وتستروح إلى غيرها من أبناء جنسها ، مثل ما هو معروف بين النّاس فى مأكولاتهم ومشروباتهم وملبوساتهم ومشموماتهم ومبصراتهم ومسموعاتهم ، فالموسيقار الحاذق الفاره[٣] هو الذى إذا

---

(١) دساتين : م . دستان ، وهو فى اصطلاح الموسيقى الوتر من العود أو ما يقابله فى جميع الآلات

(٢) الرسائل : ج ١ ، ص ١٥٧ — ١٦١

(٣) الفاره : الماهر .

علم بأنَّ المستمعين قد ملّوا من لحن غنّى لهم لحناً آخر ، إما مضاداً له أو مشاكلاً له .

وأعلم يا أخى أن الخروج من لحن إلى لحن ، والانتقال منه ليس له طريق إلّا على أحد الوجهين ، إمّا أن يقطع ويسكتَ ويُصلح الدساتين والأوتار بالحزْق[١] والإرخاء ويبتدئ ويستأنف لحناً آخر ، أو يترك الأمر بحاله ، ويخرج من ذلك اللحن إلى لحن آخر قريب منه مشاكلٍ له ، وهو أن ينتقل من الثّقيل إلى خفيفه أو من الخفيف إلى ثقيله ، أو إلى ما قارب منه . والمثال فى ذلك أنه إذا أراد أن ينتقل من خفيف الرَّمَل[٢] إلى الماخورى[٣] أن يقف عند النقّرتين الأخيرتين من ثقيل الرَّمَل ، ثم يتلوهما بنقرة ، ثم يقف وقفة خفيفة ، ثم يبتدىء بالماخورى . ومن حذق الموسيقار أيضاً أن يكسو الأشعار المفرحة الألحان المشاكلة لها ، مثل الأرمال والأهزاج[٤] ، وما كان منها من المديح فى معانى المجد والجود والكرم أن يكسوها من الألحان المشاكلة لها ، مثل الثقيل الأول والثانى ، وما كان فى المديح من معانى الشجاعة والإقدام والنشاط والحركة أن يكسوها من الألحان مثل الماخورى والخفيف وما يشاكلها .

ومن حذق الموسيقار أيضاً أن يستعمل الألحان المشاكلة للأزمان فى الأحوال المشاكلة بعضها لبعض . وهو أن يبتدئ فى مجالس الدعوات والولائم والشُّرب بالألحان التى تقوّم الأخلاق والجود والكرم والسخاء ، مثل ثقيل الأول ، وما شاكلها ثم يُتبعها بالألحان المفرحة المطربة ، مثل الهَزَج والرَّمَل ، وعند الرقص

---

(١) الحزق : شد الوتر وجذبه وربطه .
(٢) خفيف الرمل : لحن من ألحان الموسيقى .
(٣) الماخورى : نوع من الألحان .
(٤) الأهزاج : م . هزج ، ضرب من الغناء فيه ترنم .

والدستبند[١] الماخورى وما شاكله ، وفى آخر المجلس إن خاف من السّكارى الشغب والعربدة والخصومة أن يستعمل الألحان الملينة المنومة الحزينة[٢] .

ب ـ الهدف السياسى

التنديد بالظلم والجور

قد يكون لإخوان الصفاء هدف سياسى يسعون إليه وغاية يرمون بها إلى الثورة على نظام الحكم فإن فاتهم الاضطلاع بالثورة الظاهرة فلن يفوتهم التنديد بجور الحكام المستبدين لعل ذلك التنديد يثير النفوس المستسلمة الخانعة .

ثم اعلم أن السلطانَ الجائر قصيرُ العمر ، لأن الله قاصمُ كلِّ جبّارٍ عنيد ، ومهلك كلِّ مارد ومعتد ، وهو منصف المظلوم من الظالم ، فإنه جلّت قدرته يقول فى بعض الكتب المنزلة : أيها السلطان إنما جعلتُك خليفتى فى أرضى ، وألقيتُ عليك اسماً من أسمائى ، وملّكتُك رقابَ عِبادى ، و بسطتُ يديك فى بلادى لتنصف المظلوم من الظالم . فإذا كنتَ أنتَ الظالم وتعدّيتَ على الضّعفاء من خلقى والمساكين من عبادى ، وصرتَ أنت الظالم وهم المظلومون ، فأنا ملك الملوك وسلطان السلاطين ، وأنا آخذ الحق منك . ثم آذن للمهلكين فى إهلاكك وتخليدك فى العذاب الأليم .

ثم اعلم أنك إن أقبلتَ على شهوات الدّنيا وملاذّها ، واغتررت بما فيها من الطيبّات ومحاسن المرئيّات ، واشتغلت بها عما لك فيه صلاح ونجاح فى دار المعاد ، يوشك أن يؤتيك ما أصاب رجلاً اجتاز فى طريق كان يسلكه فى نهر جرّار ينحدر من جبالٍ وعليه جسرٌ يعبر عليه النّاس .

---

(١) الدستبند : لعبة يقوم بها المجوس ، يدورون وقد أمسك بعضهم يد بعض كالرقص ، مركب ن « دست » ، أى يد ، ومن « بند » أى رباط .

(٢) الرسائل : ج ١ ، ص ١٧٤ — ١٧٥

وإنه لما صار على ظهر الجسر وقف ينظر إلى جرَيان الماء ، فبينا هو كذلك إذ نظر إلى سمكة كبيرة من أحسن أجناس السّمك فقال فى نفسه : ما أنصرف فى يومى هذا إلى بيتى بأحسنَ من هذه السمكة فأشويها وأجمع عليها أهلى وأولادى وآكل منها أكلة طيبة ، ولكن أخشى من جريان الماء أن يحول بينى و بين السمكة . ثم قويت شهوته ورام مقام السمكة بحيث يراها ، وقويت طبيعته فى أخذها فنزع ثيابه ورمى بنفسه وغاص وراءها إلى أن قبض على السمكة بإحدى يديه . وفرح بظفره بها ، واشتغل عن السباحة مخافة أن تفلتَ السمكة منه ، فغلبه الماء لشدّة جريانه فزحزحه عن الموضع الذى نزل منه وأشرف على الهلَكة وشحّ على السمكة أن يفلتها وينجو بنفسه ، فلم يزل ذلك حاله وهو يروم الخلاص بنفسه مع السمكة حتى حَدَره[١] الماء إلى جُرُف[٢] عظيم ينصبُّ إلى وهدة تحت الأرض فغاص به ، فأتاه عامر النهر وكان يسكن ذلك الموضع ، فقال : ماً تفعل فى هذا المكان الذى لا يقع فيه أحد إلا غرق وهلك ؟

فقال : أنا الذى تركت الطريق الواضح والمحجّة[٣] اللائحة التى فيها النجاة والسلامة ، ووقعت فى هذه المهلكة من أجل لذّة يسيرة وشهوةٍ حقيرة . فقال له : هلا خلّيت ما فى يدك ونجوت بنفسك ! فقال : والطمع منى فى السلامة والفوز بما كنت حدثت به نفسى ! . فقال إنك جاهل وما أرى أحداً أولى منك بالغرق ، فوضع يده على رأسه فغرقه . فإذا تفكرت يا أخى فى هذه الأمثال والإشارات وقرأت على إخواننا أيّدهم الله ، كان ذلك ذكرى لك ولقومك ، ونعوذ بالله أن تكون ممن تنطبق عليه هذه القصة ، ولا أحد من إخواننا ، ولكن اتباعاً لقول الله تعالى لرسوله « فَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ[٤] » .

---

(١) حدره : أنزله .

(٢) الجرف : الجانب الذى أكله الماء من حاشية النهر .

(٣) المحجة : جادة الطريق ووسطه .

(٤) ق . ك . آيات ٥٥ . الرسائل : ج ٣ ، ص ١٧٧ — ١٧٨

ج – معالم الوثنية فى مذهبهم

الكواكب والأفلاك

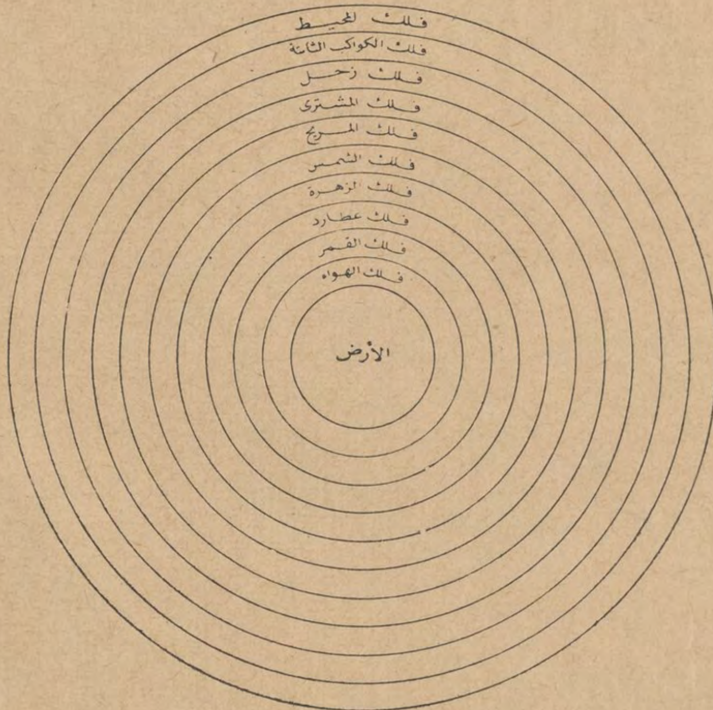
فى تعاليم إخوان الصفاء رواسب من وثنيات قديمة مختلفة و إن لم تكن صافية كل الصفاء فتعاليمهم كما قلنا فى سياق البحث أشبه بقوس قزح من حيث تعدد الألوان . ومن تلك الألوان مذهبهم فى الكواكب والأفلاك .

واعلم يا أخى أنّ السموات هى الأفلاك ، و إنما سمّيت السَّماء سماءً لسموّها ، والفلكُ لاستدارته . واعلم بأن الأفلاك تسعةٌ : سبعةٌ منها هى السَّماوات السَّبْع ، وأَدناها ، وأقربُها إلينا فلكُ القمر ، وهى السَّماء الأولى ، ثم من ورائه فَلَكُ عُطاردَ ، وهى السَّماء الثانية ، ومن ورائه فلكُ الزُّهَرَة وهى السَّماء الثالثة ، ثم من ورائه فلكُ الشَّمس وهى السَّماء الرابعة ، ومن ورائه فلكُ المرّيخ وهى السَّماء الخامسة ، ومن ورائه فَلَكُ المشترى وهى السَّماء السادسة ، ثم من ورائه فلكُ زُحَلَ وهى السَّماء السَّابعة ، وزُحَلُ النَّجم الثاقب ، و إنما سمّى الثاقبَ لأن نوره يثقُب سَمْك سبع سماوات حتى يبلغ أبصارنا ، هكذا روى فى الخبر عن عبد الله ابن عبَّاس ترجمان القرآن ، وأمَّا الفلكُ الثامن ، وهو فلك الكواكب الثابتة الواسعُ المحيط بهذه الأفلاك السبعة فهو الكرسى الذى وَسِعَ السَّماوات والأرض ، وأمَّا الفلك التاسع المحيط بهذه الأفلاك الثمانية فهو العرش العظيم الذى يحمله فوقهم يومئذ ثمانية كما قال الله عز وجل .

واعلم يا أخى أن كلَّ واحدٍ من هذه السبعة المقدَّم ذكرُها سماءٌ لما تحته وأرض لما فوقه ، ففلك القمر سماء الأرض التى نحن عليها ، وأرض لفلك عطارد ، وكذلك فلك عطارد سماءٌ لفلك القمر وأرضٌ لفلك الزُّهَرة ، وعلى هذا القياس

حكمُ سائرِ الأفلاك : كلٌّ واحدٍ منها سماءٌ لما تحته ، وأرضٌ لما فوقه إلى فلك زُحَل الذى هو السماء السابعة .

اعلم يا أخى أن الأرض التى نحن عليها هى كرة واحدة بجميع ما عليها من الجبال والبحار والبرارى والأنهار والعمران والخراب ، وهى واقفة فى مركز العالم فى وسط الهواء بجميع ما عليها بإذن الله عزَّ وجلَّ ، والهواء محيطٌ بها من جميع جهاته كإحاطة بياض البيضة بمُحِّها (١) ، وفلكُ القمر محيطٌ بالهواء من جميع جهاته كإحاطة القِشرة ببياض البيضة ، وفلك عُطارد محيطٌ بفلك القمر على مثل ذلك . وعلى هذا القياس سائرُ الأفلاك ، إلى أن تنتهى إلى الفلك المحيط بالكلّ كما ذكره الله جَلَّ ثناؤه « وَكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون » .



(١) المح : صفرة البيض .

وهذا مثالُ تركيب الأفلاك وصورةُ سموكِ[١] السماوات ، ومِنْ فوقها فلك البروج ، ومِنْ فوقه الفلك المحيط .

فقد بان بهذا المثال أنَّ جملة العالم إحدى عشر كرة : اثنتان فى جوف فلك القمر ، وهما الأرض والهواء ، لأن الأرض والماء كرة واحدة ، والهواءَ والأثير كرةٌ واحدة ، وتِسْعٌ من ورائه محيطاتٌ بعضُها ببعض[٢] .

القرابين والأعياد

كذلك فى كلامهم على القرابين والأعياد ملامح من وثنيات قديمة اشتهرت فى الشرق والغرب .

فنذكر الآن العِبادة والقرابين ، وهى نوعان لا ثالث لهما ، قربانان مقبولان صادقان ودعاءان مستجابان ، وهاهنا قربان غير مقبول ، ودعاء غير مستجاب ، وهو ما أخبر الله عنه أنَّ وَلَدَىْ آدم قرّبا قرباناً ، فتقبِّل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، ودعاء الكافر الذى هو فى تَبابٍ[٣] لا يُقبل .

فأَمَّا العبادتان، فإحداهما الشرعية الناموسية باتّباع صاحب الناموس ، والانقياد إلى أوامره ونواهيه ، والمسارعة إلى ماجاء به وقضاه وحكم به على من استجاب إليه وتقرّب إلى الله سبحانه وتعالى بما ذكر أنه رضيه من القرابين والعبادات والطهارات والصلوات والصوم والزكاة والحجّ والجهاد والسعى إلى البيوت العامرة والبقاعِ الطاهرة ، والإقرار بكتب الله ورسله وملائكته ووحيه ، وما شاكل ذلك

---

(١) السموك : الارتفاع .

(٢) الرسائل : ج ٢ ، ص ٢٢ – ٢٣

(٣) التباب : الهلاك .

فى موجبات أحكام الشرائع ، و إقامة النواميس ، والامتثال للأوامر والنواهى ، والنظر إلى أفعال النبى (صلعم) والاقتداء بأفعاله والتشبه به فى جميع أفعاله ، كما قال الله : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (١) » ، والتضرّع إلى الله سبحانه بالدُّعاء والابتهال فى وقت الاجتماعات فى الأعياد والجُمُعات وعند ظهور الآيات ، فهذا هو الدعاء المستجاب والقربان المتقبَّل .

وأمّا العبادة الثانية فهى العبادة الفلسفية الإلهية ، وهى الإقرار بتوحيد الله عزّ وجلّ ، وقد تقدَّم ذكرها فى صدر الرسالة الجامعة فى شرح رسالة الأرثماطيقى تقف عليه إن شاء الله .

وأمّا الدعاء والقربان المقبول المستجاب فاعلم يا أخى أنك متى كنت مقصّراً فى العبادة الشرعية فلا يجب لك أن تتعرَّض لشىء من العبادة الفلسفية وإلاّ هلكت وأهلكت وضللت وأضللت : وذلك أنَّ العمل بالشريعة الناموسية ، والقيام بواجب العبادة فيها ، ولزوم الطاعة لصاحبها عليه السلام ، والعمل بالعبادة الفلسفية الإلهية إيمان ، ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون مسلماً ، والإسلام سابقٌ على الإيمان كما قال الله تعالى على لسان رسوله (صلعم) مخاطباً الأعراب المنافقين من أهل الشريعة الذين كانوا يظهرون الإيمان ويكتمون النفاق : « قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ (٢) » . وإنما تخصَّص أصحاب الرسول عليه السلام بعده بالصبر الذى رأوه كان يستعمله فى العبادة والطاعة لربّه فرضاً على نفسه وتعليماً لأصحابه ، فقام بالأمرين ، وكمل المنزلتين ، وحاز الفضيلتين ، لأنه كان عليه السلام

---

(١) ق . ك : الأحزاب ٢١

(٢) ق . ك : الحجرات ١٤

مسلماً مؤمناً عارفاً بالدعاء فى وقت الإجابة ، ولذلك كان لا يردّ له دعاء وكان إماماً للمسلمين والمؤمنين عارفاً بالفلسفة الإلهية .

ولمـا تمّت الفضيلة لواحدٍ من أهله وأصحابه قال مفتخراً : « أنا أرسطاطاليس هذه الأمة » .

واعلم يا أخى أن اقتران العبادة الشرعية بالعبادة الفلسفية صعبٌ جدًّا لأنها موت الجسد فى أقرب الأوقات ، وحصر النفس عن الأمور المحبو بة بأسرها ، وترك الرخصة فى كل شىء منها والوصول إلى إدراك حقائق الموجودات بأسرها .

ونريد أن نشرح لك طرفاً منها ، فتحصل لك رتبة من الدرجة الأولى ، وهو شبه المدخل والمقدمة لك لعلك تقوم بشىء من حدّ العِبادة والدُّعاء فى الأوقات المستجاب فيها من يدعو بذلك .

فصل

واعلم أيها الأخ أن أفضل الدعاء فى السنَّة الشرعية والديانة الإسلامية فى ليلة القدر ، و بعدها عيد الفطر ، وعيد الأضحية يوم النحر ، وعند البيت الحرام ، و بين الركن والمقام ، وعند معاينة هلال الفطر ، وعند بذل الزّ كاة لمستحقها ، ودعاء من يأخذها فى وقت أخذها ، وطلبه إياها فإن هذا دعاء مستجاب وقربان متقبَّل .

وأمَّا العبادة الفلسفية الإلهية فإن أول درجة منها ، وهى التى كانت الفلاسفة القدماء والأجِلَّةُ العلماء يأخذون بها أولادَهم وتلامذتَهم بعد تعليمهم أحكام السياسات الجسمانية والنفسانية والعبادات الناموسية الشرعية ، أن يكون لهم فى كلِّ شهر من شهور السنة اليونانية ثلاثةُ أيام : يوم فى أوله ، ويوم فى وسطه ، ويوم فى آخره .

فأما اليوم الأول من الشّهر فيجب له أن يتطهّر أنظف طهور ، ويتبخّر بأطيب ما يقدر عليه من البخور ، ولا يفرّط فى طهارته وصلواته المفروضة عليه فى شريعة الناموس ، فإذا انقلب من محراب صلاة عشاء الآخرة جلس يسبّح الله ويقدّسه ويهلّله ويكبّره إلى أن يمضى من الليل الثلث الأول ، ثم يقوم ويجدّد الوضوء ، ويسبغ الطهارة ليكون طهورٌ على طهور ، ونورٌ على نور ، ويبرز من بيته إلى أن يحصل تحت السماء بحذاء الجدى ، وهو النجم الذى يهتدى به . قال الله تعالى : « وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(١) » فيتأمل الكتاب المبين ، ويتدبّر آياته ، ويرى الملكوت دائماً وهو يسبّح الله ويقدّسه ، ولا يدع التكبير والتهليل ليكون من الذين قال الله تعالى فيهم : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ(٢) » الآية ، وما يزال كذلك حتى يذهب من الليل الثلثان ، فيكون الثلث الأول قياماً بعبادة الناموس ، والثلث الثانى قياماً فى التفكير فى الملكوت .

فإذا زال أوان الثلث الأوسط هبط إلى الأرض ساجداً بتذلّل وخضوع لباريه ، فلا يزال كذلك ما قدر عليه ، ثم يرفع رأسه ببكاء واستغفار وتوبة واستعباد ، فيعدّد ذنوبه على نفسه ، وينوى التوجّه بحسناته وصالح أعماله ويدعو بالدعاء الأفلاطونى ، والتوسل الإدريسى ، والمناجاة الأرسطاطاليسية المذكورة فى كتبهم ، فلا يزال كذلك حتى يبدو الفجر ، فيقوم فيسبغ الوضوء ، ويتطهر فيرجع إلى محرابه فيصلّى صلاة الفجر ويجلس فى مكانه إلى أن تطلُع الشمس . فإذا طلعت الشمس ، وأقبل أولُ النهار ذبح بيده ، إن كان ممن قد اعتاد ذلك ، ما قدر عليه من محلّل الحيوان ، ويأمر بإصلاح ما كان من الطعام ، ويأذن لأهله وإخوانه

---

(١) ق . ك : النحل ١٦

(٢) ق . ك : آل عمران ١٩

بالدخول عليه والوصول إليه ويحضر ذلك بين أيديهم . فإذا فرغوا من طعامهم
حمدوا الله عزَّ وجلَّ اسمه وشكروه وخرّوا له سُجَّداً ، شكراً له بما مَنَّ عليهم .
ثم يخرج إليهم من الحكمة بحسب ما يوجبه الزّمان ويسعه المكان ، ولا يزالون
كذلك بقيّة يومهم إلى الوقت من عشاء الآخرة ، فيرجعون إلى منازلهم ،
ويتصرّفون فى معايشهم ، ويقومون بواجبات أحكام أديانهم إلى اليوم الثانى ،
وهو يوم ليلة البدر إذا استكملت استدارته ، وتمّت أنواره فيه فيفعل فى تلك الليلة
وصبيحة ذلك اليوم كما فعل فى اليوم الأول وأزيد قليلا ، ثم كذلك إلى وقت
الانصراف بعد العشاء الآخرة من غد ليلته ، ثم فى آخر الشهر ، وهو اليوم
الخامس والعشرون من شهره ، بينه وبين أول الشهر الجديد المستقبل خمسة أيام ،
ويكون لمن اقتدى بهذه السنَّة فى السنة أربعة أعياد .

فصل

العيد الأول يوم نزول الشمس برج الحَمَل ، وذلك أنَّه فى هذا اليوم يستوى
الليل والنهار فى الأقاليم ، ويعتدل الزمان ، ويطيب الهواء ، ويهبّ النّسيم ،
ويذوب الثلج ، وتسيل الأودية ، وتمُدّ الأنهار ، وتنبع العيون ، وترتفع الرطوبات
إلى أعلى فروع الأشجار ، وينبت العشب ، ويطول الزرع ، وينمو الحشيش ،
ويتلألأ الزهر ، وتورق الأشجار ، وتكمل الأنوار ، ويخضرّ وجه الأرض ،
وتتكوّن الحيوانات ، ويدبّ الدبيب ، وتنتج البهائم ، وتدرّ الضروع ، وتنتشر
الحيوانات فى البلاد ، ويطيب عيش أهل البرّ ، وتأخذ الأرض زخرفها ، وتصير
كأنها فتاة شابة طريّة ، فيجب أن يكون ذلك اليوم عيداً يظهر فيه الفرح
والسرور .

وكان الحكماء فى هذا اليوم يجتمعون ويجمعون أولادهم وشبّانِ تلامذتهم بأحسن زينة ، وأنظف طهور ، إلى الهيا كل التى كانت لهم ، ويذبحون الذّبائح الطيبة الطاهرة ، ويضعون الموائد ، ويكثرون البقول والألبان والحبوب مما تنبته الأرض،فإذا أكلوا وفرحوا أخذوا فى استعمال الموسيقى بالنقرات المحرّكة للأنفس إلى معالى الأمور والنغمات اللذيذة بتلاوة الحكمة ، ونشر العلم ، فيكون بذلك راحة النفس وكمال الأنس ، فلا يزالون كذلك بقية يومهم ، ثم ينصرفون إلى أشغالهم .

ولهذا اليوم اسم باللغة اليونانية معروف عندهم ، وهو اليوم الذى نزلت فيه الشمس رأس الحمل[١] ، وهو نوء الربيع .

فصل

فى العيد الثانى

فإذا نزلت الشمس أوّل السَّرطان،فإن ذلك اليوم العيد الثانى ، نوء الصيف، وفيه يتناهى طول النهار ، وقصر الليل ، وانصراف الربيع ، ومجىء الصيف ، واشتداد الحرّ ، وهبوب السمائم[٢] ، ونقصان المياه ، ويبس العشب ، واستحكام الحَبّ ، وإدراك الحصاد والثمار ، فيكون ذلك اليوم عيداً لاستقبال زمانٍ جديد تابع للزمان الأول .

وكانت الحكماء تجتمع فيه إلى الهيا كل المبنيَّة لذلك اليوم ، لأنَّهم كان لهم

---

(١) الحمل : برج فى السماء من البروج الربيعية . فى اعتبار الفلكيين أن فى السماء اثنى عشر برجاً هى : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت .

(٢) السمائم : م ، سموم : الريح الحارة .

لكل عيد هيكل لا يدخلونه بذلك الزّى إلا فى يوم مثله . فيدخلون الهيكل المبنى ، و يلبسون الذى يليق بطبيعة ذلك البرج ، وكذلك ما يكون يستعملونه من الطعام والشراب ، وما كان من الثمار الآتى بين التيبيس والترطيب فى الطبقة الأولى ، فإذا قضوا ما يجب عليهم فى ذلك اليوم ، انصرفوا فلا يجتمعون إلى العيد الثالث ، وهو يوم نزول الشمس رأس الميزان .

فصل

فى العيد الثالث

فإذا نزلت أول دقيقة من برج الميزان استوى الليل والنهار مرَّةً أخرى ، ودخل الخريف ، وطاب الهواء ، وهبّت رياح الشمال ، وتغيَّر الزمان ، ونقصت المياه ، وجفَّت الأنهار ، وقلّ ماء العيون ، وجفّ النبات ، فيكون ذلك اليوم أيضاً يومَ عيد فيدخلون إلى الهيكل المبنىّ لذلك اليوم ، ويكون استعمالهم من الأكل ما يوافق طبيعة ذلك اليوم والزمان ، ومن نشر العلم ما لاق به ولا عيد لهم بعده إلى أن تبلغ الشمس آخر القوس وأول الجدي .

فصل

فى العيد الرابع

العيد الرابع عند ما يتناهى طول الليل وقصر النهار ، و يأخذ الليل فى النقصان ، والنهار فى الزيادة ، و ينصرف الخريف ، و يدخل الشتاء ، ويشتدّ البرد ، و يسخن الهواء ، و يتساقط ورق الشجر ، و يموت أكثر النبات ، وتنحجر الحيوانات

فى أعماق الأرض وكهوف الجبال من شدة البرد . فإذا كثرت الأنداء ، ونشأت الغيوم ، وأظلم الهواء ، وكلح وجه الزمان ، وهزلت البهائم ، وضعفت قوى الأبدان ، ومنع الناس التصرف والاجتماع بعضهم مع بعض ويَمُرُّ[1] عيش أكثر الحيوان وكانت الحكماء تتّخذ هذا اليوم يوم حزن وكآبة وندم واستغفار ، وكانوا يصومونه ولا يفطرون فيه .

وإذا تأملت أيها الأخ هذه الأيام الأربعة فى السنة الفلسفية التى اتخذوها أعياداً وأفراحاً ، وكان فرحهم الأكبر فى الأول منها ، ودونه فى الأوسط ، ودونه فيما يليه ، وفى الآخر يوم حزن وكآبة ، إلى أن يستأنف الدور الآخر عند رجوع الشمس إلى أول برج الحمل ، وإذا أنعمت النظر إلى أعياد الشريعة الإسلامية وجدتها موافقة لها ، وذلك أن نبيّنا ، عليه السلام ، سَنَّ لأمّته فى شريعته ثلاثة أعياد : فالأول منها يوم عيد الفطر ، وهو أعظم فرح يكون بخروج الناس من شدة الصوم إلى الفطر ، كفرح أهل الأرض بقدوم الربيع والخصب بعد ذهاب الشتاء ، ثم عيد الأضحى وهو يوم تعب ونصب ، لأنه يوم الحجّ ، فيكون الوفد الشرعى فيه شُعْثاً غبراً ويحتاج فيه إلى إراقة دم ، ويكون فرحاً ممزوجاً بغمّ ونصب ، فيكون الفرح دون الأول ، كفرح الفلاسفة بالعيد الثانى من سنتهم ، إذ كانوا يستقبلون الهجير والرمضاء والسمائم وشدة الصيف .

ويكون اليوم الثالث فى السنة الشرعية يوم وصيته عند انصرافه من حجّة الوداع بغدير خُمّ ، وفرحه ممزوج لأنه خالط ذلك بنكث وغدر ، موافقاً للعيد الثالث الفلسفى المتقلّب فيه الزمان من الصيف إلى الخريف وتناهى حال الثّمار وأخذها فى النُّقصان والجفاف .

---

(١) مر ، يمر مرارة صار مراً .

واليوم الرابع هو يوم الحزن والكآبة فهو يوم قبض فيه النبى (صلعم) إلى رضوان الله ومحل كرامته صلّى الله عليه وآله ، وإن كان عيداً له لما وعده ربّه تعالى بقوله : « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولَى[١] » . فهو بانتقاله إلى جوار الله وكريم فنائه عيدٌ له ، غير أنه مشوب بمصاب أُمته ، وانقطاع الوحى ، وفقدهم شخصه الكريم .

واعلم أيها الأخ أنّا جماعةَ إخوان الصفاء أحقُّ الناس بالعبادة الشرعية ، ومراعاة أوقاتها ، وأداء فروضها ، ومعرفة تحليلها وتحريمها ، لأنا أخصّ الناس بها ، وأولاهم بحملها ، وأقرب الناس إلى من جاءت على يديه ، وأُولاهم به ، وأحق الناس أيضاً بالعبادة الفلسفية الإلهية ، والقيام بها ، والأخذ لها ، والتجديد لما دثر منها . فإذا أكملنا ذلك كانت لنا سُنّةٌ ثالثة نتميز بها ونتخصّص بعلمها . ولنا أيضاً ثلاثة أيام[٢] نتخذها أعياداً ونأمر إخواننا بالاجتماع فيها والسعى إليها .

واعلم أيها الأخ أن أعيادنا هذه ليست تشابه أعياد الفلسفة ولا الشريعة فى الحقيقة ، لكن بالمثل لأن أعيادنا ذاتية ، قائمة بذواتها ، تظهر الأفعال عنها ، وبها وفيها . وهى أربعة أيضاً : أول ، وأوسط ، وآخر ، والرابع أصعبها عملاً وأشدها فعلاً . وأمثال هذه الأيام الأربعة التى ذكرناها ووصفناها فى الزمان بالحركات الفلكية وموجبات أحكام النجوم : الربيع والصيف والخريف والشتاء . وهى فى الشريعة المحمدية والملّة الهاشمية عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، وعيد الغدير ، ويوم المصيبة به صلوات الله عليه ، وفى الشريعة الفلسفية نزول الشمس الحمل والسرطان والميزان والجدى ، وفى الصورة الإنسانية أيام الصبا وأيام الشباب وأيام الكهولة وأيام آخر العمر . . . وبه ذهاب الشخص ومفارقة الجسم للنفس ، ولذلك

---

(١) ق . ك : الضحى ٤

(٢) يشيرون بعد ذلك إلى أن أعيادهم هى أربعة .

يبكى عليه ويكون عند أهله الهمّ والحزن والأسف على فقده كما حزن أهل بيت النبوة لما فقدوا سيّدهم وغاب عنهم واحدهم ، وتخطفوا من بعده ، وتفرق شملهم ، وطمع فيهم عدوهم ، واغتصبواحقهم ، وتبددوا ، ثم ختم ذلك بيوم كربلاء ، وقتل من قتل من الشهداء ما افتضح الإسلام به .

ومن قبله ما نال أحق الناس وما قاسى أولاهم بالأمر من بعده ؟ . . ثم من بعد غيبة صاحب الشريعة (صلعم) قتل من بعده من أجلة أصحابه المساعدين له فى إقامة الناموس معه مثل صديقه وفاروقه وذي النورين وما تواتر على أهله وأقاربه من المصائب ، فصار ذلك سبباً لاختفاء إخوان الصفاء ، وانقطاع دولة خلان الوفاء ، إلى أن يأذن الله بقيام أوّلهم وثانيهم وثالثهم فى الأوقات التى ينبغى لهم القيام فيها إذا برزوا من كهفهم ، واستيقظوا من طول نومهم .

واليوم الرابع يكون فيه حزنهم لغيبة سيدهم ، كما غاب أبوهم صاحب الناموس وما كان من الحزن والكآبة الواقعة بهم من بعده .

فأعيادنا أيها الأخ هى أشخاص ناطقة ، وأنفس فعالة تفعل بإذن باريها ما يوحيه إليها ويلهمها من الأفعال والأعمال : فاليوم الأول من أيامنا ، والعيد الفاضل من أعيادنا هو يوم خروج أول القائمين منّا ، ويكون اليوم الموافق لنزول الشمس برج الحمل لمجيء الربيع والخصب والنعمة ونزول الرحمة والظهور والانتشار وهو يوم فرح وسرور لنا ولجميع إخواننا .

واليوم الثانى يوم هو يوم قيام الثانى الموافق يوم قيامه يوم نزول الشمس أول السرطان في تناهى طول النهار وقصر الليل إذ كان فيه تصرّم دولة أهل الجور وانقضائها وهو فرح وسرور واستبشار .

واليوم الثالث هو يوم قيامة ثالثنا الموافق لنزول الشمس أول الميزان ، واستواء

الليل والنهار ، ودخول الخريف ، وهى مقاومة الباطل الحق وكون الأمر على خلاف ما كان عليه .

ثم اليوم الرابع يوم الحزن والكآبة ، يوم رجوعنا إلى كهفنا وكهف التقية والاستتار وكون الأمر على ما قال صاحب الشريعة : « إن الإسلام ظهر غريباً ، وسيعود غريباً فيا طوبى للغرباء » ، فيكون الأمر على مثل ما نحن عليه فى وقتنا إلى وقت البروز والخروج والرجوع بعد الذهاب ، كرجوع الشمس بعد ذهاب الشتاء إلى برج الحمل . . .

واعلم يا أخى أن فى هذه المدة يميز الله الخبيث من الطيب ، ويرفع أهل العلم درجات لم يكونوا لينالوها إلاّ بصبرهم واحتسابهم فى جنب ما يصيبهم ، فلا تنكر أيها الأخ ما ذكرنا من أن الزمان لا يدوم بصفائه ، إن الصفاء إنما يعرفُ بالكدورةِ والعدلَ بالجور ، والصحة بالسقم ، وإنما صفاء إخوان الصفاء لما أخلصوا الصبر على البلوى فى السرّاء والضرّاء ، واستسلموا لربهم ، وانقادوا إليه بنفوس طيبة ساكنة مطمئنة .

واعلم أيها الأخ أن القربان ، كما ذكرنا ، قربانان : شرعى وفلسفى لا ثالث لهما . فأما القربان الشرعى فهو المأمور به فى الحجّ من ذبح الحيوانات المذكورة الموصوفة على شرائطها من أجناسها المحمودة السالمة فى المواضع التى يجب ذلك فيها ، وأجلُّها ما كان أكثر ثمناً ، وأحسن صورة ، وأجود غذاء لمن يأكلها ممن يفرق فيهم ويشبعهم ويكفيهم .

فإذا خرج ذلك من حله ودفع إلى أهله بنفسٍ طيبة ونيَّةٍ صادقة كان قرباناً مقبولاً وكفَّارة نافعة ودعاءً مستجاباً ، فهذا قربان شرعى .

وأما الفلسفى فهو مثل ذلك إلاَّ أن النهاية فيه التقرّب بالأجساد إلى الله

سبحانه بتسليمها إلى الموت ، وترك الخوف ، كما فعل سقراط لمَّا شرب السمّ المذكور (قصته فى كتاب فاذن[١]) ، وكاستبشار أرسطاطاليس لمَّا نزل الموت به لما حزن عليه تلامذته وما كان من خطابه ووصيته المذكورة فى رسالة (التفاحة) .

واعلم أيها الأخ أن أعظم القرابين هو ترك النفس محبة الدنيا ، والزهد فيها ، وقلة الخوف من الموت وتمنيه .

وأما قربان إخوان الصفاء فهو قربان يجمع هذه الخصال كلَّها بأسرها ، شرعيّها وفلسفيها ، وهو التقرب بما تقرّب به إبراهيم من الكبش الممنون به عليه فداءً لولده الذى قد رعى فى أرض الجنة أربعين ميلاً ؟ ؟ فإن تمكنت أن تتقرب بكبش رعى فى أرض الجنة ولو شبراً فافعل ولا تقعد عنه، واجتهد فى ذلك لتكون قد بلغت المجهود وأقمت المثل ، وعمّرت عالم الله تعالى ، وأرجو أن يوفقك الله لفهم ما تسمع ويجعلك من أهله .

ولما كان هذا الفصل جامعاً للفضائل النفسانية ، وعلمنا أنك متى امتثلت فيه الوصية كملت لك الصورة الملكية ، وكانت لك فى معادك مهيأة لوصولك إليها ، ونزولك عليها ، ختمنا الرسالة بهذا الفصل وسميناه « الفصل الجامع للفوائد النافعة » ، وهو منها بمنزلة القلب من الجسد ، والرأس من البدن ، وهو نهاية الغرض بعد الوقوف على ما فيها ، والارتسام بجميع ما رسمنا ، والاعتماد على ما وصفنا

واعلم أيها الأخ أن كلامنا هذا تشهد بصحته العقول السليمة ، وتسكن إليه النفوس الصافية المشتاقة إلى رُبّها ، وتعضده الآيات المكتوبة فى الآفاق والأنفس وما فى السموات والأرض وما تدل عليه الكتب النبوية والتنزيلات السماوية وأفعال الأنبياء واتفاقهم على هذه الأعمال التى ذكرناها والسياسات التى وصفناها

---

(١) يشيرون بذلك إلى كتاب فيدون لأفلاطون . وفى هذا المصنف ذكر لمصرع سقراط .

وأفعال الحكماء من الفلاسفة القدماء و بنائهم الهيا كل فى الأرض على مثال ما هى مبنية فى السماء .

واعلم أيها الأخ أن الشاكّ فيما ذكرناه ، والرادّ فيما وصفناه ، معذور فى ذلك ، لأنه جاهل لا علم له ولا معرفة عنده ، فهولاءٍ فى سكرته وتائه فى ضلالته ! ! فمن أراد أن يعرف صحّة ما قلنا ، و يمتحن صدقنا من كذبنا فليفعل ما فعلنا ، و يبذل من نفسه ما بذلنا ليحلّ له دخول الحرم ، والوقوف على المقام وزمزم ، فإن رأى ما يؤيد الشريعة المحمدية والملّة الهاشميه و يقوّيها ، و ينفى عنها شبه الملحدة ، وجحدة الأنبياء ، فيقيم معنا بالرحب والسعة ، له ما لنا وعليه ما علينا ، و إن رأى ما ينال من الشريعة فهو معذور فى رفضه مثاب فى تركه ، وليس على ما خرج منه ثواب يمنعه من العود إليه . وقد جاء فى الخبر عن سيدنا رسول الله (صلعم) أنه قال : (لا يمين فى معصية الله) ، بلّغك الله أيها الأخ البار الرّحيم منازل الأبرار ، ونجاك و إيّانا من عذاب النار وجميع إخواننا حيث كانوا فى البلاد والقفار ، إنه جواد غفار[1] .

٦ - الإلهيات

ا ـ وجود الخالق

الخلق الروحانى

عنى إخوان الصفاء بوجود الخالق و وحدانيته وقوته وأزليته وتنزهه عن الوصف وخلقه الأشياء بالقوة والكمال .

و إنما قدّمنا هذه الرسالة على غيرها ، وجعلناها مقدّمات لما يأتى من بعدها اقتداءً بحكمة الله تعالى واتباعاً لأمره ، وذلك أن الله سبحانه خلق الأشياء كلها

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٣٠١ — ٣١٠

دفعةً واحدة ، بالقوة ، فى إبداعه الأول ، وخلقه الأكمل ، ثم أخرجها من القوة إلى الفعل الشىء بعد الشىء ، فكانت البداءة فى العالم الروحانى العلوى ، بأفضله الذى هو أوله ، وسبب وجوده موجود عن وجوده ، فهو بدوامه يبقى ، ولذلك هو ممتد الوجود ، قابل للجود ، مستكمل الفضائل والخيرات ، تام الأنوار والبركات ، بجميع الفضائل والسّعادات ، معرًّى من الشوائب والتغيّرات ، مبرّأ من النقص الواقع من جهة الطبائع المختلفات ، والهيولات المركّبات والصور المختلفات ، فهو يرتّب كل موجود مرتبته ، وينزله منزلته ، ويُوفيه قسطه ، ويوليه بقدر سعته وطاقته فى لزوم النظام ، والبلوغ إلى درجة الكمال والتمام ، ولذلك جعل فيه القوة الحافظة لسائر الموجودات وجوداتها العاقلة ، تتمّ ذواتها الخاصة بواحد واحد مما تستحقه أو يليق بها ، فلذلك يُشار إلى ذاتها الخاصة باسم الفعل الصادر عنها ، إذ فعله ذاته وصورته تأثيراته . فهذا هو السابق البادئ ، ثم يليه اللاحق التالى ، وهو النفس الكلية المنبعثة منه ، المخترعة بواسطته المبدعة بها الذوات ، من سائر الموجودات ، وأفضل أحوالها الوجود الذى هو الحياة . وهذه النفس هى التى وصلت الأجسام إلى أفضل أحوالها ، وأجلّ أعمالها وأفضل صورها وأتمّ وجودها . ولما تصوّرت الأجسام ، وتركّبت عليه منها ، وانطبعت فيها حصلت لها قوة تتعلق بها الأجسام الطبيعية ، والآلات الحسّية ، على قدر قواها المجعولة لها على اختلاف صور الأجسام ، ومواد أغذيتها ، فجعلت صورة كل واحد منها مخالفة لصورة الآخر ، وهى الطبيعة الباقية فى الأجسام يحصل بها التخلّق والتعلّق والتصوّر ، والتشكّل بالصور الخاصة لواحد واحد منها ، كما شاء باريها ومبدعها ، ومصورها لا إله إلا هو وذلك أنه وضعها فى الجسم ، وجعل قوامه بوجودها فيه ، وصيّره بقوتها يتحرك إلى تمام ما هو

معد له ، وغاية ما قدر بلوغه إليه ، ووقوفه عنده إلا أن يعوقه بعض العوائق من خارجه فيمتنع من حركته إلى أن ينقطع ذلك العائق ، و يزول ذلك المانع فيعود إلى حركته الخاصة . ثم الهيولى التى هى ذات بالقوة ، لا موجود بالفعل تخرج إلى الوجود بقبول الصورة التى بها يصير الشىء هو ما هو ، و يفارقها كون العدم . والعدم هو لا موجود بالفعل ولا موجود بالذات ، ولا موجود بالعرض ، فسبحان خالق الوجود ، ومفيض الجود على كل موجود فهو معدن الجود ، منه بدأ و إليه يعود . فلذلك قلنا فى ترتيب الخلقة الروحانية من الجواهر البسيطة العالية التى هى أصول العالم الجسمانى ، والخلق التركيبى ، إن العقل الأول سابق ، والنفس الكلية المنبعثة منه لاحقة ، والهيولى مشتاقة ، والطبيعة سابقة ، والنفس الجزئية مسبوقة . فالهيولى مشتاقة إلى حصول الصورة فيها ، والطبيعة سابقة للنفس التى اتحدت بها ، إذ نزلت عليها ، فافهم يا أخى أرشدك الله هذا القول ، وتصفّح هذا الكلام وتدبّر هذا العلم الجليل ، فإنه يرشدك إلى سواء السبيل [(١)] .

الخلق الجسمانى

وعنوا كذلك بالكلام على مخلوقات الله من معادن ونبات وحيوان و إنسان بعد خلقه الأفلاك العالية ودورانها :

وأما ترتيب الخلق الجسمانى ، فإنه لما تركبت الأفلاك العالية ، ودارت بالقوة المحركة المنبعثة من النفس الكلية ، وسرت فى الجسم المطلق القوى الباعثة للأشياء من حال القوة إلى حال الفعل ، بالهيولى الأولى ، ابتدأت الأشياء تبدو من الطبيعة لما تم المركز واستقرت عليه الطبائع المختلفة ، فامتزجت الأمهات بالحركة الفلكية الدورية وأشرقت الكواكب النورانية ، ورمت بأنوارها إلى المركز ،

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٢٦٩ — ٢٧٤

ودارت الأفلاك فكانت الدورة الأولى دورة نفسانية متحركة بحركة إرادية ترتب بها الفلك المحيط وهو أول ما تركب من القوة النفسانية ، فصارت مبدأ الحركة الجسمية ، وارتبطت بها النفس الكلية ، ودارت بالشوق إلى باريها سبحانه تطلب اللحوق بدرجة الإبداع الأول الذى هو علتها ، والوصول إلى درجة الكمال والبقاء على أشرف الأحوال . ثم دار الفلك المحيط فتركب ما دونه ، وكذلك حتى كان فلك القمر ثم وقف الدوران الفلكى عن أن يكون فلك دون فلك القمر إلا ما دونه ، فكانت دائرة المركز وما هو محيط بها ومماس لأجزائها من الدوائر : مثل الماء والهواء والزمهرير والأثير . واتحدت القوى الطبيعية بالمركز ، وامتزجت بالدوران ، وأشرق عليها النيّران الأعظمان الشمس والقمر ، ومطارح شعاعات الكواكب ، فكان أول شىء بدا من الأرض تكون المعادن ثم صورة النبات ، وكان ذلك فى الأرض بالقوة لما قدر الله سبحانه فيه من أنه يكون غذاء للحيوان ، وجعل النبات متقدم الوجود على الحيوان لحاجة الحيوان إليه ، وإنه لا غنى به عنه . فكانت صورة النبات مجموعة فيها صورة الحيوان بالقوة ، ثم بدا الحيوان يتركب منه الأَدْوَن فالأَدْوَن والأقل ، مما هو آلة مستخدمة لمن يأتى بعده ، وموهوب له فكانت البداية فى الخلق الأول بالأفضل الأعلى ، إذ كان عالم الجواهر النورانية ، التى لا تركيب فيها ولا تغاير ولا تخالف ولا تباين إلا بشرف السبق بالرتبة ، والقرب من البارى جلّ جلاله وذلك لأنها خارجة عن الزمان ، ومستغنية عن المكان ، ولما كان الخلق الجسمانى ، والعالم الطبيعى ، يقبل الكون والفساد والتغيير ولاستحالة ، ويكون فى الزمان ، ويحتاج إلى المكان ويغتذى كانت البداية بالأدْون حتى تكون النهاية بالأفضل . فلذلك كان ظهور الإنسان بعد كون المعادن والنبات والحيوان لما له فيها من المنفعة والمصلحة .

ولو كانت البداية فى الخلقة الجسمانية بالإنسان قبل المعادن والنبات والحيوان ، لـكان خلقه عبثاً ، لأنه لم يكن يقدر على البقاء ، ولا يتيسّر له العيش ، إذ كان لا يجد الغذاء ولا يرتفق به ، فلذلك كان بالعناية الربّانية والحكمة الإلٰهية تقدم كون المعادن والنبات والحيوان على كون الإنسان ، إذ كان محتاجاً ، مضطرّاً إلى الغذاء والمادة التى بها قوام جسمه ، وسبب حياته ودوامه ، ولذلك كانت الخلقة الجسمانية بالعكس من حال الخلقة الروحانية إذ كانت البداية فى تلك بالأفضل ثم بالأدْوَن ، وفى هـذه بالأدْوَن ثم بالأفضل ، وكذلك فعلت الحكماء فيما وضعته من العلوم واستخرجته من الصنائع و بسطته من الكتب ، إنها ابتدأت بالأشياء وجعلتها مقدّمات لما يأتى بعدها ، إن صورة المتقدم جامعة لما تقدمه ، مشيرة إليه بالقوة ودالّة عليه ، وكذلك فعلت الأنبياء ، صلوات الله عليهم فى موضوعات شرائعهم وأحكامهم وسننهم وفرائضهم ، وما نصبوه من أمور العبادات والطاعات ، فإن أمر الشريعة مبنى فى ظاهرها على ترتيب الخلقة الجسمانية ، وفى باطنها على ترتيب الخلقة الروحانية ، وذلك أن واضعى النّاموس أوّل ما دعوا الناس إليه ودلوهم عليه وجاهدوا من خالفهم فيه الشّهادتان : الأولى بالوحدانية والثانية بالرسالة ، فـكانت بقية الشريعة موجودة فى هذه الفريضة الأولى بالقوة ، مجموعة كلها فيها . ولذلك قال الرّسول عليه السلام : من قال لا إله إلا الله حقن بها دمه وماله ، وأنه ، صلى الله عليه وسلم ، كان يجاهد المشركين حتى يقولوها ثم قال : من قالها مخلصاً دخل الجنة ، فقيل ما إخلاصها يا رسول الله فقال : معرفة حدودها ، و إقامة فروضها . فأشار بذلك إلى أنه لا يستحق دخول الجنة إلا من كملت له المعرفة بحدود الشريعة و إقامة فروضها وأحكامها ، وكذلك كان الأمر فى تنزيل الـكتب النبوية والآيات العلوية : الابتداء بالسّور القصار المجموع فيها معانى

ما بسط فى غيرها من السّور الطوال ، وذلك لطف من الله سبحانه بخلقه وسعة رحمته ، وفضله لما علم أن الخلق يعجزون عن قبول العلوم الإلهية ، والحكم الربانية دفعة واحدة ، بل بالتدرج ، الشىء بعد الشىء ، وقبول القوة أول ما جعله فى وسعهم وجبلهم عليه ، فإذا جاءتهم الأشياء بالقوة وتصوروها جاءتهم الأشياء التى توجب إظهار ما حصل فى نفوسهم بالقوة إلى الفعل من العبادة والطاعة والأعمال : مثل الطهارة والصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وسائر مفروضات الشرائع ، وسنن الديانات . فكل هذه الأفعال تقدمتها علومها وسبقتها معرفتها ، فلما كملت لهم معرفتها ، ووقفوا على علمها وقبلوا تعلمها أمروا بفعلها والقيام بعملها ، وكذلك ترتيب الأشياء كلها من الموجودات التى دون فلك القمر . ولما كان ذلك كذلك قدمت الحكماء والفلاسفة العلماء العلم الرياضى التعليمى على غيره من العلوم التى أخرتها ، وجعلتها فى العلم الرياضى بالقوة ، فمن ارْتاض بالعلوم الرياضية التعليمية ، وتهذبت نفسه بها وداوم على قراءتها وجب على الحكيم أن ينقله إلى غيرها ، ولا يزال كذلك حتى يبلغه إلى نهاية ما يعمله ، ويوقفه عند ما وقف عنده ، ويأمره بالعمل عند استكماله حد العلم ومعرفته ، فمن علم ولم يعمل ، لم ينفعه علمه ، ومن عمل ولم يعلم كان كالذى قال الله فيهم « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ، تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً[١] « الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً[٢] » ولا يقبل الله عز وجل العمل إلا من عالم عارف ، فلما كانت هذه سنّة الله فى خلقه ، وسنّة الحكماء من عباده ، والمصطفَيْن من أنبيائه وجب علينا أن نستنّ بسيرتهم ، ونتخلّق بأخلاقهم ، ويكون لنا بهم أسوة حسنة ، فجعلنا ما قدمناه من الرسائل الابتداء بالعلوم الرياضية التعليمية ، ليرتاض بها الطالبون للعلوم الشريفة ،

---

(١) ق . ك : الغاشية ٣ ، ٤

(٢) ق . ك : الكهف ١٠٤

والحكم الجليلة ، فإذا تهذّبت نفوسهم بها وتمهّروا[1] فيها وعرفوا معانيها ، ووقفوا على أسرارها ، لاحت لهم العلوم،وصارت فى نفوسهم بالقوة ، فإذا جاءتهم عرفوها وأسرعوا إلى قبولها وترك الإنكار والجهل بسرها ، فكذلك يجب على من وقعت فى يده هذه الرسائل أن يبدأ بما قدمناه متدرجاً . وقد عرّفناك فى رسائلنا أن رسالتنا هذه تجمع الأغراض ، والمعانى والبراهين والفوائد ، وأنها تقوم بذاتها مقام الرسائل كلها ، والعلوم التى فيها بأجمعها ، إذ كانت هى الخاتمة ، وفيها بيان ما تقدّم مما جعلناه بين يديها دلائل عليها ، ومنبّهات لمن نظر فيها من رقدة الجهالة ، ونوم الغفلة ليرقى إلى العالم الأعلى ويشاهد ويرى ملكوت السماء ، وقد أثبتنا فيما قدمناه من هذه الرسائل الجامعة بالحجج القاطعة والبراهين اللامعة بيان ما قصدنا إليه ، وجعلناه مستودعاً من فصول المقدمة الرياضية التعليمية وفتحنا أبوابها وسهّلنا على الراغبين فيها مطالبها ، وبيّنّا أغراض الحكماء الأولين ، والعلماء الرّبانيين فى وضعها وتصنيفها ، وترتيبها على ماهى مرتبة عليه ، وبيّنّا أن الفلسفة هى التشبه بالإله بحسب الطاقة الإنسانية ، وأن تقدم الأشياء بالقوة أولا يوجب ظهورها بالفعل آخرًا ، ولما قدّمنا ما قدّمنا مما ذكرناه ووصفناه بموجز من القول بغير إسهاب ولا تطويل بمعنى يقرب حفظه ، ويسهل مأخذه ، ويقف المتعلمون عليه ، ما إذا تصفحته وتبينته علمت أنّا إنما قصدنا فى وصفنا ذلك التقرّب إلى الله سبحانه بالدعاء إليه والدلالة على وحدانيته والزلفى لديه ومعرفته جلّ وعزّ بما تعرف به إلى خلقه وأمرهم أن يعرفوه به من الطريق القويم والصراط المستقيم ، فيزول الشّرك والتعطيل ، والتشبيه والإلحاد فى أسمائه ، وليكون من وقف على ما ذكرناه مجانباً لصفة الذين قال الله فيهم ،

---

(١) تمهر : حذق .

وذمم بما ارتكبوه من الشرك فقال « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا[١] » وذلك لما تعدّوا معرفة الله سبحانه وكفروا به ، وأشركوا به وألحدوا فى أسمائه ، واتخذوا من دونه آلهة لا تضرهم ولا تنفعهم فقال « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ[٢] » فمن لم يتفكر فى خلق السموات والأرض وما فى الآفاق والأنفس من الآيات الظاهرات ، والدّلالات الشاهدة على توحيد الله سبحانه ووجوده بوجود موجوداته الدالة عليه ، والدالة بكثرتها على توحده و بازدواجها على تفرده و بانتقالها على دوامه و بزوالها على ثباته و بعجزها على قدرته ، و بضعفها على قوته ، و بإحاطة بعضها ببعض على إحاطته ، و بما كتبه فى كتابه المبين مسطراً ، وخطه فى لوحه الكريم مخبراً فقال : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ[٣] » وقال : « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ[٤] » وكل العلوم الحقيقية والعبارات اللغوية على اختلاف ألسنتها وتغاير أشخاصها ، وافتراق أبنيانها ، وأشكال كيفياتها ، ناطقة بتوحيد مبدعها ومقرّة بإثبات خالقها ، وذلك موجود فى جبلتها فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وإنما وقع الاختلاف والتباين بما اتحدت به النفوس من شوائب التكدير وأوساخ التغيير ، وميل النفوس اللاهية ، والأرواح الساهية إلى الأمور المحسوسة ، والأشخاص المنكوسة ، فخرجت من التكليف الشرعى ، والمنهاج الناموسى إلى القول بقدم العالم و إنكار الوجود ، والتخلى عن عبادة المعبود ، والاستكبار على

---

(١) ق . ك : غافر ١٢

(٢) ق . ك : النجم ٢٣

(٣) ق . ك : فصلت ٥٣

(٤) ق . ك : يس ١٢

الحدود ، سنة إبليس اللعين ومن اتبعه من الشياطين ليصح الشوه فيما ينسب إليه من الولادة الخبيثة وهى النفوس النجسة والأرواح الرجسة المتخلفة عن الإجابة فى وقت النداء إذ قال لهم ربهم : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » ، وقفوا عن الإجابة بها والإذعان بالطاعة لمستوجبها والعبادة لمستحقها فشوه خلقهم وعكس صورهم ومسخ أشخاصهم فهم فى سكرتهم يعمهون كما قال سبحانه « وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »[١] . ومنهم من قال لهم : « كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً »[٢] ، وكذلك قال إبليس لما أباحه القدرة عليهم إذ كانوا من حزبه : « وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ »[٣] . ولم يبحه ذلك منهم ويحثه على الاحتواء عليهم إلا لما انحرفوا عن الطاعة ووقفوا عن الإجابة كبراً وعلوًّا ، وهم أصحاب الفتن موقدو نار الفتنة ، قتلة الأنبياء والمرسلين والأئمة المتقدمين ، أتباع الشياطين ، وذرية إبليس اللعين ، وهم الأشرار من الأمم الطاغية ، والأحزاب الباغية ، الذين لا يزدادون إلا ضلالة وعمى ، فهم فى طغيانهم يعمهون ، وفى جهالتهم يترددون ، لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ فهم الذين قال الله سبحانه فيهم « وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ »[٤] . وقال لما ضرب مثلا لمن نهاهم عن مثل حالهم وأن يعملوا مثل أعمالهم : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ »[٥] إلى الذكر إذا

---

(١) ق . ك : المائدة ٦٠

(٢) ق . ك : الإسراء ٥٠

(٣) ق . ك : الإسراء ٦٤

(٤) ق . ك : يس ٩

(٥) ق . ك : البقرة ١٨

ذكروا ، ولا يتفكرون ، فلهم قلوب لا يفقهون بها ، وآذان لا يسمعون بها ، وأعين لا يبصرون بها، أفٍّ لهم ولما يعبدون من دون الله « أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ »(١) « لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ »(٢) . « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ »(٣) ، « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »(٤) بالكون والفساد ، فى الأشخاص المظلمة والأجساد المشوهة . فلا يزال ذلك دأبهم ، وأنبياء الله تذمهم، ورسله تلعنهم ، وكتبه المنزلة بأقبح الصفات تصفهم ما دام دور الستر جارياً على سننه ، ومتمادياً على عادته ، فإذا آن زواله وتغيره وانتقاله أذهب الله تعالى الصور المظلمة والنفوس الخالية من نور الحكمة المفرطة فى جحود باريها وهى النفوس العاصية التى بدت منها الزلة الأولى التى كان من أجلها هبوط آدم إلى الأرض وكون دور الستر إلى جهنم الكبرى لم نرد أن نخلى هذه الرسالة من ذكر طرف منه ليكون ذكرى للذاكرين وموعظة للمتقين « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »(٥) . ونحن نذكره فى موضعه إذا انتهى بنا القول إليه إن شاء الله(٦) .

الجسم المطلق

بعد العالم العلوى يبتدىء الحدوث السفلى أو الطبيعى بحركة الهيولى الأولى وتوسط العقل الفعال .

أما المقرّون بحدوث الهيولى من الحكماء القدماء فإنهم لما أرادوا البحث عن ذلك ابتدأوا أولاً بالنظر فى العلوم الرياضية فأحكموها ، ثم بحثوا عن الأمور

(١) ق . ك : آل عمران ١١٦

(٢) ق . ك : البقرة ١٦٢ و آل عمران : ٨٨

(٣) ق . ك : الحجر ٤٨

(٤) ق . ك : النساء ٥٦

(٥) ق . ك : البقرة ٤٦

(٦) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٢٧٥ — ٢٩٥

الطبيعية فعرفوها معرفة صحيحة ، ثم تفكروا عند ذلك فى الأمور الإلهية وبحثوا عنها بحثاً شديداً بنفوس صافية وأفهام ذكيّة وعقول وافية فأدركوا ما طلبوا وتصوّروا ما بحثوا عنها عن قوة معرفة صحيحة وسكنت صدورهم إلى ذلك .

وقد بيَّنَّا فى رسائلنا الإلهية طرفاً من ذلك ولكن نذكر أيضاً فى هذا الفصل مثلاً واحداً ليكون دليلاً على صحة ما قلنا ، وذلك أنهم لما أرادوا النظر فى حدوث العالم كيف كان بعد أن لم يكن وما ذلك الصانع الذى صنعه ، نظروا أولاً إلى المصنوعات فتأملوها فوجدوها أربعة أنواع : فمنها مصنوعات بشرية نحو ما يعمله الصنّاع فى أسواق المدن ، ومنها مصنوعات طبيعية مكونة من الأركان الأربعة مثل أشخاص الحيوانات والنباتات والمعادن ، ومنها مصنوعات نفسانية كالأفلاك والكواكب والأركان ، ومنها مصنوعات إلهية كالعقل الفعال والنفس الكلية والهيولى الأولى والصورة المجردة .

ثم نظروا إلى المصنوعات البشرية فوجدوا كل صانع من البشر محتاجاً فى صناعته إلى ستة أشاء ليتم بها صنعته وهى الهيولى ، والمكان ، والزمان ، والحركة ، والأدوات والآلة ، وكل صانع طبيعى محتاج إلى أربعة منها وهى : الهيولى ، والمكان ، والزمان ، والحركة ، ووجدوا كل صانع نفسانى محتاجاً إلى اثنين منها لأن فعله وصنعته إنما هى اختراع وإيداع بلا حركة ولا زمان ولا مكان ولا أدوات، وذلك أن الله تعالى أول شخص اخترعه وأوجده — جوهراً شريفاً بسيطاً روحانيًّا — يسمى العقل الفعال ، ثم أبدع بتوسط هذا الجوهر جوهراً آخر دونه فى الشرف يقال له النفس الكلية .

ثم ابتدأ النفس الكلية بتوسط العقل الفعال فحركت الهيولى الأولى طولاً وعرضاً وعمقاً ، وكان منها الجسم المطلق ، ثم ركب من الجسم عالم الفلك

والكواكب والأركان الأربعة جميعاً ، ثم أدار الأفلاك حول الأركان الأربعة جميعاً ، ثم أدار الأفلاك حول الأركان واختلطت بعضها ببعض ، وكان منها المولدات الكائنات من المعادن والنبات والحيوانات ، فتبارك الله رب العالمين .
فقد تبين بهذا الاعتبار وبهذا القياس العلة الفاعلة والعلة الهيولانية والعلة الصورية.

فأما الدليل على صحة ما قلنا وحقيقة ما وضعنا فلا يتبيّن إلا بعد معرفة النفس ذاته فإنه أشرف جوهراً من الجسم ، وقد بيَّنا طرفاً من ذلك فى رسائلنا الرياضيات والطبيعيات والإلهيات بما فيه كفاية[1] .

ب ـ الفيض العقلى والحدوث السفلى

العقل والنفس والهيولى

ابتدأ الخالق بالعالم الروحانى العلوى ثم فاض عنه العقل الكلى ثم فاض عن العقل الكلى النفس الكلية ثم فاض عن النفس الكلية الهيولى الأولى .

اعلم يا أخى أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن المعقولات كلها صور روحانية ، تراها النفس فى ذاتها ، وتعاينها فى جوهرها بعد مشاهدتها لها فى الهيولى ، بطرق الحواس ، إذا هى انتبهت من غفلتها ، ورقدة جهالتها ، ونظرت بعين البصيرة إلى نور العقل اللائح لها بدلائل ما ألقى إليها ، وما أُنزل عليها من قول المؤيدين بالحكمة الذين هم الأنبياء (والأئمة) صلوات الله عليهم أجمعين ، فإذا استضاءت النفس بقربها فى وجه الزمان ، وتجمَّلت ببهائه ، لاحت لها صورة العقل متَّحدة بجواهره الكريمة ومقاماته العظيمة ، فإذا أقبلت عليها ، وأصغت بكلّيتها إليها ، وعطفت عن الطبيعة ، لاحت لها أنواره ، وتكشفت لها أسراره ، حتى لا ترى

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٣ و ٤

إلا إيّاه ، ولا تسمع إلا منه ، فعند ذلك يرقيها إلى معرفته ، ويدلّها على حقيقته فيصير حينئذٍ مكاناً لجميع الأشياء المعلومة ، تتراءى فيها ذواتُها على ماهى به من غير أن يمازج بعضُها بعضاً وتختلط ، بل موضوعة فى قوّتها بالعلم ، كما كانت فى محسوساتها فى النظر ، فعند ذلك تكون عقلاً مجرداً من الهيولى ، مستغنية بذاتها ، عمّا سواها ، فإذا بلغت إلى هذه المنزلة كانت مستعدّة لما يُلقى إليها ، ويُفاض عليها من الموادّ الإلهية ، فتخرج من حدّ العبودية إلى حدّ الإطلاق ، وعن درجة النقص إلى رتبة الكمال ، فاعرف هذا الموضع ، وتفكّر فيه ، حتى تلوح لك معانيه ، إن شاء الله تعالى(١) .

٧ ـ النفسيات

هبوط النفس

يتجلى فى الرسائل التالية مذهب إخوان الصفاء فى هبوط النفس من الفلك العلوى إلى الأرض وفى تقرير مصيرها بعد ذلك بما تكون قد قدمته من أعمال .

اعلم ، أرشدك الله ، أنّ النفوس أوّل ما بدت وسرت لما أُهبطت إلى الأجسام من أعلى سطح الفلك المحيط إلى نحو مركز الأرض ، مَرّت أوّلاً بالكواكب والأجرام ، وبلغت إلى آخر مركز الأرض ، الذى هو أقصى مدى غاياتها فى هبوطها ، ومنتهى نهاياتها فى حضيضها ، فمنها ما ثابت وأنابت ، وتذكّرت ، ورجعت من قريب ، فاتّحدت بالكواكب النيّرة ، والأجرام الصافية ، ولذلك قيل لها النفس المطمئنة الراجعة من قريب ، ولم يطل بها الأمد فى جهالتها وطغيانها ، ثم كانت كذلك تتفرّق وتتحد الشىء بعد الشىء على قدر الصفاء والرجوع إلى

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٦٤

الإقرار ، والاعتراف بالخطأ ، إلى أن بلغت إلى فلك القمر أبواب العالم العلوى ثم هبطت المتخلفة عن الإجابة نحو المركز ، واتحدت بعالم الأمهات ، وسرت قواها فى المعادن ، والنبات والحيوان ، وعطفت عليها النفوس الناجية المتحدة بالكواكب ، وحنت عليها ورحمتها ، وكذلك أخبر الله سبحانه عن أهل السماوات ، والحافين من حول العرش ، أنهم يستغفرون لمن فى الأرض ، فقد صح بالبرهان الصادق أن كل شىء يحن على جنسه . فدارت الأفلاك ، وسارت الكواكب النيرات ، وترتبت الأمهات ، وظهرت الأشخاص فى المعادن والنبات ، والحيوان ، وبرزت صورة الإنسان ، وامتلأ العالم من الأشخاص ، ونزلت النفس القدسية بالروح من أمر ربها ، على من يشاء من عباده ، بالدعاء إليه ، والدلالة عليه ، فمن أجاب وأناب لحق بعالمه ، ومن أبى واستكبر ، وخالف ، نزل فى هوته ، فانظر الآن يا أخى كيف يكون انصرافك ، ورواحك من هذا العالم إلى هناك ، فإن نفسك هى إحدى تلك القوى الهابطة ، المنبثة من النفس الكلية ، السارية فى العالم ، وإنك قد بلغت إلى المركز وانصرفت ونجوت من الكون فى المعادن ، والنبات ، والحيوان ، وجاوزت الصراط المنكوس ، والصراط المعوج ، وأنت الآن على صراط مستقيم ، منتصب بين الجنة والنار ، وهذه صورة الإنسانية ، فإن جاوزته وسلمت من هذه دخلت الجنة من أحد أبوابها ، وهى الصورة الملكية التى تكتسبها بأعمالك الصالحة ومتاجرك الرابحة ، وأخلاقك الجميلة ، وآرائك الصحيحة ، ومعارفك الحقيقية . فاجتهد يا أخى قبل فوت الأمل ، وحلول الأجل ، واركب مع إخوانك فى سفينة النجاة ، كما ركبوا لتصل إلى حيث وصلوا ، وتنزل حيث نزلوا ، ولا تكن من المغرقين الذين هم إخوان الشياطين ، ولا تأوِ إلى جبل ليعصمك من الماء ، فإنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم[1] .

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٣٨٢ - ٣٨٦

الرسالة الثانية

فى السّماء والعالم ، والغرض فى وضعها ، والدّاعى إلى تصنيفها ، والقول فيها ، والغرض المطلوب منها ، والزبدة الخالصة من جميعها ، معرفةُ الكرسى الواسع ، والعرش المحيط ، والبيانُ عن كيفية تحريك الأفلاك ، وتسييرات الكواكب ، وأنَّ المحرّك لها الحركةَ الأولى الإرادية بالشّوق إلى مبدعها ، هو النفسُ الكلّية الموكلة بها بإذن باريها ، وأنَّ الحركة متصلة بها حتى تكون سارية فى جميعها ، فهى فى عالم الأفلاك قوى كلية ، وتأييدات قدسية ، سارية فيها بحسب أشكالها الفاضلة وصورها الكاملة ، التى هى عالم الجنان ، ودار الحيوان ، ذات الروح والريحان ، وأنَّ قِواها المنبعثة منها ، السارية فيما دونها ، فى عالم الكون والفساد الذى هو دون فلك القمر ، آثار جزئية مرتبطة بعالم الكون والفساد ، كائنة فى محل الأجساد ، هى الأرواح الهابطة للزلة التى كانت منها ، والخطيئة التى جَنَتْها ، فأُخْرِجت من الجنَّة ، وأُبْعدت عن دار الكرامة ، فبقيت معذَّبة ، مربوطةً بالطبيعة الحسّيَّة والتكاليف اللازمة لها ، فى الشرائع الناموسية ، جزاء لها بما أَسْلفت ، وليكونَ ذلك قربة لها إذا قبلت أوامر الشرائع ، وسارعت إلى طاعة باريها لتوبة ، وإنابة ، وتَنَصّل ، واستغفار ، بلا إصرار ولا استكبار ، فعند ذلك يكون رجوعها إلى محلِّها النورانى وقرارها الروحانى ، ومتى غفلت واستكبرت عن قبول أوامر الأنبياء والمرسلين وما أَتَوْا به من الآيات والبراهين ، بقيت معكوسة فى أشخاصها المنكوسة ، وقوالبها المنحوسة ، لا يخفف عنها العذاب بما أسلفت ، وعن الإقرار باريها تخلّفت ، وعن اللّحوق بعالمها وقفت فى دار البلاء ومحلّ الشقاء ، وإن الوحى لايزال ينزل من السماء إلى الأنبياء والمصطفين من

الأولياء بالأنباء والذكرى والدُّعاء إلى الله سبحانه بالتذكرة ، والموعظة الحسنة ، حتى يتذكّر من يتذكّر منها النداء ، فيبادر إلى الإجابة والإنابة ، ويعرف الله سبحانه حقَّ المعرفة ، فيتوب من زلته ، ويتنصّل من خطيئته ، فيَردّه الله إلى دار كرامته ، ومحلّ نعمته ، كما ردّ آدم لما تاب عليه إلى رحمته هو وزوجه ، وخلّف إبليس فى عذابه المهين ، وعقابه الأليم ، لما أصرّ واستكبر ، ولم يتذكر ، حتى تقوم القيامة . فعند ذلك يُبْلِسُ[1] المجرمون ، فينقطعون عن اللحوق بالنفس الكلية ، وينفصلون عنها ، فلا وجود لهم بعد ذلك ، حتى كأنهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، وهذا الفصل من غوامض العلوم الشريفة ، والحكم اللطيفة ، فكن به ضنيناً وعليه أميناً .

الرسالة الثالثة

فى الكون والفساد ، ومعرفة الأَشخاص ، والأجساد ، والنشوء والبلى ، والبيان عن ماهية الصور المقوِّمة لكل واحد من الأركان الأربعة ، التى هى الأمهات وهى : النّار ، والهواء ، والماء ، والأرض ، وإنها أمّهات المواليد الكائنة منها جميعُ الموجودات من المعادن ، والنبات ، والحيوان ، وكيفية استحالة بعضها إلى بعض باختلاف كيفيّاتها ، وأعداد كمياتها ، وتباين أبنياتها ، وكيفية استحالة بعضها إلى بعض ، بدوران الأفلاك حولها . ومطارح شعاعات الكواكب عليها ، والطبيعة المنفعلة ، والقوة المحرّكة لكلّ واحد منها إلى كمالها ، وأن الغرض المقصود منها ، والمراد المطلوب من جميعها هو الوقوف على أن المحرّك لها ، والمنبعث منها ، قُوَّةٌ جزئية من قوى النفس الكلّية الفلكية ، بالإدارة الإلهية ، والعناية الربانية ،

---

(١) أبلس من رحمة الله : يئس .

وأنّ ملكاً من جملة الملائكة موكل بها ، وأنّ الرؤساء الظاهرين فى الآفاق ، بالآيات ، والمعجزات هم أشخاص صورانية ، متحدة بها أرواح نورانية ، مؤيدة بتأييدات إلهية ، منبعثة من النفس الكلية القدسية ، القابلة لفيض العقل بلا واسطة نزلت ، لتخلص النفوس الجزئية من عالم الفناء ، وتذكرهم محل البقاء وتمحو عنهم آثار الخطيئة الكبرى ، وما حلّ بهم من المصيبة العظمى ، وتنقذهم من أسر الهيولى ، وتفكهم من قيود الطبيعة ، وتردّهم إلى عالم السموات ، ودار الملكوت فى عالم العقل إذا قبلوا وتابوا ، وإن آخر المذكرين ، وخاتم النبيين هو النفس الزكية ، التى بها يكون افتتاح دور الكشف ، وارتفاع دور الستر ، وظهور الحقائق ، عند ذلك لا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً[1] .

النفس حاملة الجسم

ويفند إخوان الصفاء رأى من يقول إن الجسم وعاء للنفس ويذهبون على العكس من ذلك إلى أن الجسم محمول لا حامل ويضربون لذلك الأمثلة .

. . . واعلم أنه (الجسم) محمول لا حامل — كما ظنّ كثير ممن لا علم عندهم ولا معرفة معهم أن الجسم حامل النفس ، وأنها زبدته وصفوة طبائعه وأنها تقوى بقوة الغذاء ، وتضعف بضعفه ، وليس الأمر على ما ظنوا ولا القضية كما توهموا ، وإنّما النفس حاملة للجسم وأعراضه ، وهى الذاهبة به فى الجهات التى يجب لها ، وهى معه تدبّره فى مجيئه وذهابه ، وبها يستقرّ على ما يجانسه ويشاكله من الكثائف ، إمّا فى جهة من الجهات الأرضية من هبوط إلى أسفل بحيث يكون له

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ١ ، ص ٣٠١ — ٣٠٨

ثبات القدمين فى الهبوط ، وإمّا طلوع إلى فوقُ بحيث يمكنه مثل ذلك . وإما استواء طيران فى الهواء وطلوع إلى السماء فإنها لا يمكنها بهذه الطّينة الكثيفة ترقيها إلى هناك ، بل يمكنها الصعود بمجردها إذا تخلّصت منه وانفصلت عنه .

وذلك أن السفينة فى البحر المحكمة الآلة المتقنة الأداة تمر فيه بمن يرب ّ أمرها ويصلح حالها ، ومع ذلك فإنها لا تسير إلا بهبوب الرياح القائدة لها إلى الجهة التى يختار صاحبها ، وإذا سكنت الريح وقفت السفينة عن ذلك الجريان ، كذلك جسد الإنسان إذا فارقته النفس لا تتهيأ له تلك الحركة التى كان يتحرك بها مع النفس . ولم يعدم من آلته شيئاً ولا ذهب منه عضو من الأعضاء إلا ذهاب الروح منه فقط ! والبرهان أن الريح ليست من جوهر السفينة ولا السفينة حاملة بل الريح محركة لها .

فإذا صح ّ أن الريح محركة للسفينة وليست من جوهر السفينة ولا تقدر السفينة ومن فيها على استرجاع الريح بعد ذهابها بحيلة يعملونها أو صنعة يصنعونها ، كذلك ليست الروح من جوهر الجسم ، ولا الجسم حامل للروح ولا يقدر أحد من العالم على استرجاع النفس إذا فارقت الجسم .

فيا ليت شعرى كيف يفسد هذا البرهان إلا بمكابرة العِيان ! فإذا تحقّقت ذلك وعلمت أن جسمك إنما هو سفينة معدّة لهبوب الرياح ونزولها عليها علمت أن هلاك السفينة — إذا هلكت — يكون من حالين : إما بفساد من جهة جرمها وانحلال تركيبها فيدخل الماء ، ويكون ذلك سبب غرقها وهلاكها وهلاك من فيها إن غفلوا عنها ولم يتداركوها بالإصلاح والتفقّد لها كهلاك الجسم من غلبة إحدى الطبائع متى تهاون صاحبه وغفل عنه ، كذلك النفس لا تبقى مع الجسد إذا فَسَدَ مزاجه ، وتعطَّل نظامه وضعفت آلته كما لا يتهيأ للريح أن تعود للسفينة كما كانت تسوقها من قبل غرقها ، والريح موجودة فى هبوبها غير معدومة من الموضوع الذى

كانت السفينة فيه قبل هلاكها ، كذلك النفس باقية فى معادها كبقاء الريح فى أفقها بعد تلف الجسم ، وإنما يكون الغرق للمركب بفساد آلته وهلاك الجسم بفساد مزاجه وغلبة طبائعه .

وأمّا القسم الثانى فهو أن يكون المركب هلاكه بقوّة الريح العاصفة الهابة الوارد منها على السفينة ما ليس فى وسع آلتها حمله ولا القدرة عليه فتضغف الآلة وتنكسر الأداة ، فإن كان من فيها من أهلها عارفين موجب ذلك الأمر من نزول ذلك العاصف وأنه بموجب المقدار اطمأنت نفوسهم وسلموا إلى ربّهم ووعظ بعضهم بعضاً وصبروا على ما نالهم ، فإن زاد بهم الأمر حتى يبطح السفينة ما يكسرها ويكون منهم ما قضى ، كانوا مطمئنى النفوس ولا يتّهمونها ، إنما أصابهم ذلك لتفريط وقع منهم ، كذلك الأحوال العارضة للجسم من جهة الأحكام الفلكية والحركات النفسانية المنبعثة أولاً من النفس الكلية التى تذهب بالأجسام وتهدمها لا دواء للمعالج والطبيب ولا للمريض أيضاً .

فأمّا الصبر عليها وقلة الجزع منها إلى أن تزول أو يكون بها الانتقال إلى دار المعاد ، فأحق ما صبر عليه وأولى ما استجيب له .

وبهذا الاعتقاد صحّ أن النفس هى جوهر غير الجسم ، وأنّها هى الحاملة له المبتلاة به ، فإذا تصوّرت ذلك وصحّ عندك وتمّ لك العمل بهذه السياسة فقد استراحت نفسك من الهمّ والغمّ من أجله و بسببه[1] .

---

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٩٦ و ٢٩٧

٨ - الأخلاقيات

فى السياسة النفسانية

يحرص إخوان الصفاء على أن يكونوا ذوى نفوس مروضة وأخلاق كريمة سواء فى علاقة الإنسان بذوى قرباه والمتصلين به عن كثب أم فى علاقته بالصحاب والناس أجمعين .

لتكون أخلاقك رضيّةً وعاداتك جميلةً ، وأفعالك مستقيمةً تؤدّى الأمانة إلى أهلها كائناً من كان من ولىّ[1] وعدوّ ، وتأخذ نفسك بحفظها ، وترعى حقّ من استرعاك حقّها ، وتحسن مجاورة جارك ، وتصفى مودة صديقك ، وتخلص المحبّة لمحبك ، مع قلّة الطمع وإزالة الفزع فى مستعجلٍ زائل وحادث نازل ، وتريد للغير ما تريد لنفسك . . .

وسبيلكُ أن تعوّد نفسك عمل الخير لأنه خير ، لا تريد بفعلك عِوَضاً ، ولا يحملك على فعله خوف . فمتى فعلت لطلب المكافأة لم يكن خيراً وإن لم تطلب المكافأة ، وإنما أردت الذكر والاسم ، كنت أيضاً منافقاً ولم يكن خيراً ، والمنافق لا يستأهل أن يكون فى جوار الروحانيين .

وأما سياسة الأهل من الأخوة والزوجة والأولاد والعبيد ومن يجرى منك مجراها فى النّسبة الجسمانية فيجب عليك أن تسوسهم سياسة لا اختلاف فيها ، وتجريهم على عادةٍ لا تعدل عنها إلا بموانعَ مانعة وأسبابٍ قاطعة ، لئلا ترجع باللوم على نفسك إذا جَنَوا عليك وتغيّروا عما كنت تعهده منهم وتعرفه فيهم بحسب تغيّر سياستك واختلاف عادتك ، فتنسب التفريط إلى نفسك فيكثر غمُّك ويبدو همك . فإذا سُسْتَهم سياسةً أَلِفْتَهم إياها ورتّبتَهم عليها استراحت

---

(١) الولى : الصديق .

نفسك ، مع أن الأحب إلينا والآثر عندنا الانفراد والوحدة ، ولكن لا يكاد يتهيّأ ذلك لجميع إخواننا ولا نأمرهم به أيضاً لئلا ينقطع الحرث والنسل .

وإذا فعلت ذلك أحكمت سياسة الأهل وخصوصاً النساء فأَكْثِر تفقّدَ أحوالهنّ فى كل وقت فإنهن سريعات التلوّن كثيرات التغيّر ، يتغيّرن مع الساعات ، ويضطربن على الأوقات ، فيكون صفحك إليهن كثيراً ، ولا يغْرركَ منهنّ صلاحٌ تعرفه فيهن فقد أنبأناك أن تلوّنهن كثير ، وأن استفسادهن سهل يسير إلا من عصمها الله تعالى منهنّ ، وقليل ماهم .

وأمّا أولادك وغلمانك وحواشيك ، فإيّاك أن تُظْهِر لهم فاقةً بعد أن تقوم بواجبك المفروضِ عليك ، فإنه متى ظهر لهم منك اختلالٌ أو حاجة نقصتْ منزلتُك وقصر موضعُك ، فلم يقُمْ لك وزنٌ ولا قامت لك هيبة ، ولا حاجةَ بك إلى أن تكشفَ فاقتَك إلى من لا يزيد شكواك إلاّ ذلاًّ ومهانة ، بل ضع عذرَك عند كلِّ واحدٍ منهم على وجه لا تنسب معه إلى فاقة وقف ، فهو أعود وأصلح .

فى سياسة الأصحاب

أما الأصحاب فقد وضع إخوان الصفاء لسياستهم دستوراً يتلخص فى الرسائل التالية .

إعلم أيّها الأخ أن سياسة الأصحاب لا تكون إلا بعد المعرفة بهم والاطلاع عليهم ومعرفة أحوالهم ، وأن لا يخفى عليك من أمرهم صغيرةٌ ولا كبيرة لتسوس كلّ واحدٍ منهم السّياسة التى تليق به دنيًا ودينا .

واعلم أنك متى كنتَ جاهلاً بمعرفتهم لم تتمّ لك سياستهم ، ولم تبلغ رضاءهم ولم يكونوا لك أصحاباً ، أوَ ما علمت أن صاحب الناموس لا يصاحب إلا من

عرفهم وخبرهم فاطلعَ عليهم اطّلاعَ الإحاطة بهم ؟ واحرص أن تباعد بين معرفتهم بك و بينهم لئلا يطّلعوا عليك كما اطلعت عليهم فيأتوك من حيث أمنت ، لأنّه ليس كل من صاحبك يحقّ لك أن تثق به وتطمئن إليه ، لأن كثيراً ممن يصحب الأنبياء إنما تكون صحبتهم لهم لوقوعِ الحيلة بهم ، ومرادُهم منهم الاطلاع على أسرارهم ليكشفوها و يظهروها لمن لا يعرفها وهم المنافقون .

فيجب أن تظهر لهم القرب بالبعد ، واللين بالغِلْظة ، والأنس بالوحشة ، والكرم بالشُّحّ ، والانبساط بالانقباض ، والرحمة بالسُّخط ، والوعد على الجميل والوعيد على الذّنب ، وقبول التوبة باللين ، والموعظة بإلقاء العلم إليهم بمقدار ما يحتملونه ، و بحسب ما يستوجبونه . ولا يكونن اعتقاد أهلك وذرّيتك وأزواجك و بنيك مخالفاً مما يظهر من اعتقادك لأصحابك و إخوانك . فمتى لم يكن كذلك فلا أهل لك ولا أصحاب ، ولا دين ولا دنيا ولا علم ولا عمل ! ! وكيف يجوز للعاقل العالم أن يكون له أهل يتديّنون بدين و يذهبون إلى مذهب هو يأمر أصحابه بخلافه ، بل الواجب عليه أن يكون أهله وأصحابه بمنزلة واحدة عنده فى التعليم ، ولا يخصّ أصحاب النسب الجسدانى بما لا يبديه لأهل النسب الروحانى ، بل يجمعهم معاً فى طريق واحد و يلقّنهم التّعاليم والمعارف والعبادات والفرائض ، فيأخذ كلّ واحدٍ منهم بحسب قوّته واستطاعته ، فإن عدل واحد من أهله وأقاربه إلى الضد مما هو عليه ، خالفه بعد تبرئه منه ، وأخرجه من جملته كما فعل رسول الله (صلعم) بعمه أبى لهب وقال : « يا بنى هاشم لا يأتينى الناسُ يومَ القيامة بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم ، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً إلا بعمل صالح » ، وكما قال تعالى حكاية عن إبرهيم خليله (صلعم) : « وَمَا كَانَ اُسْتِغْفَارُ إبرهيمَ لِأَبيهِ إلاّ عَنْ مَوْعِدَة وَعَدَهَا إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ

عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ[١] » وقال الله تعالى : « لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ[٢] » الآية ، ويكون يراعى أهل الذكاء والفطنة ومن يقصد الأغراض التى يريدها بكلامه ويومئ بها فى إشارته ومخبآت جواهره فى تقاطيع أمثاله ونوادره ، فإذا عرفهم ميزهم بنظره ، وألقى القول إليهم فى الاعتماد عليهم فى تهذيب من دونهم حتى يوصلوهم إلى مثل ما وصلوا إليه .

فإذا أحكمت هذه السياسة فى الأصحاب والأهل ، الأقرب فالأقرب ، والأبعد فالأبعد ، فأحكم أمر العبادة والقرابين المقربة إلى الله سبحانه والأعمال المزدلفة لديه[٣] .

فصل

اعلم يا أخى ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن الذى يجب علينا أن نوصيك به ونُلقيه إليك ، ونبلِّغك إياه ، ونعتمد فيه عليك ، من مراعاة إخوانك ، ومَنْ قبلك من أصحابك ، ومن استجاب إليك ، ويستجيب ، إن شاء الله ، أن تجعل لهم مجلساً تجمع فيه جماعتهم فى كل اثنى عشر يوماً ، يوماً واحداً ، يجتمعون فيه حيث ما اتَّفق لهم من مواضعهم وأمكنتهم ، بحيث يأمنون فيه على أنفسهم ، ويكون اجتماعهم على تقوى من الله عزَّ وجلَّ ، وخفية ، ومراقبة ، ويتطهَّرون قبل حضورهم ، ويتنظَّفون ، ويأخذون زينتهم بأحسن ما يقدرون عايه ، فإذا اجتمعوا بحيث تراهم ، وتعاينهم ، ولا تفقد أحداً منهم ، إلا لعذر يمنعه من القدوم عليك ، والوصول إليك ، فابرزْ لهم ، واخرج عليهم ، فى زِيّك وحالك ، وجميل

---

(١) ق . ك : التوبة ١١٤

(٢) ق . ك : المجادلة ٢٢

(٣) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٩٧ – ٣٠٠

هيئتك ، وجليل هيبتك ، كبروز النَّفس الكلية للنفوس الجزئية ، إذ هم لك كالأولاد ، وأنت لهم كالوالد ، وهم لك كالأجساد وأنت لهم كالنفس ، وهم لك كالبيوت ، وأنت فيهم كالساكن ، إذ كانت حكمتك مودوعة فيهم ، وروحك نازلة عليهم ، ويكون خروجك بسكينةٍ ووقار ، فى ليلٍ كان ذلك أم فى نهار . فإذا رأيتهم بحيث يرونك ، ويسمعون منك ، ويفهمون عنك ، فاُتل عليهم من حكمتك ، وعظهم بتذكرتك ، بحسب ما يحتمل مكانهم ، وتتسع له أذهانهم ، وأعلمهم وعرّفهم ، بما تلقيه إليهم من الموعظة ، والتذكرة ، والحثّ على طلب العلم ، أن تكون أكثر عنايتهم ، وقصدهم . وقصارى همتهم ، سعيهم فى البحث عن الأمور الإلهية والأَسرار العقلية ، التى هى الغرض الأقصى فى اللذة ، وغاية نعيم أهل الجنة ، وبه استكمال الأنس ، والترقى عن عالم الحس ، والتبرُّؤ من ظلمة الأَجسام ، والنجاة من أسر الطبيعة ، وقيد الشهوة ، وبحر الهيولى ، ودار النشوء ، والبلى . وعرفهم أن أصلح الأعمال ، وأجلّ الأفعال ، تفقُّد إخوانهم ، وتديرُ أُمورهم ومعرفة السياسات الدينية والدنيوية ، وما يجب أن يعملوه ، ويعاملوا به أهل الدنيا فى معيشة الدنيا ، وما يجب لهم وعليهم من أداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ومحبة بعضهم بعضاً فى الله عزّ وجلّ ، وأن يتواصلوا ، ويتهادوا ، ويتحابُّوا ، ويتناصفوا ولا يعصى بعضهم بعضاً ، وأن لا يتخاصموا ، ولا يتعادوا ، ولا يتقاطعوا . وعرّفهم بآداب الأَنبياء ، وصفات الحكماء ، وأحلاق المؤمنين . واُتل عليهم هذه الرسائل من أوّلها إلى آخرها ، رسالةً رسالة ، ومقالة مقالة ، وبيِّنْها لهم بأوضح الدلالة ، حتى تستخلص منهم طائفة لنفسك ، وترمقهم بعينك فإذا استخلصتهم ، ورضيت سعيهم ، بعد إيقاعك المحنة بهم ، فى أمور دنياهم ، ومواضع المحبوبات منهم ، فأمرتهم ببعد الاقارب المحبوبين فى الله ، ففعلوا ، وصلة الأباعد فى الله ، فامتثلوا ،

ونفقة الأموال فى سبيله ، فأنفقوا ، والجهاد بالأنفس ، فبذلوا ، والسعى فيما يرضى الله ، فسَعَوْا ، والخروج من الأَوطان فى الله ، فخرجوا ، وفارقوا الأَحبـاب ، وأيتموا الأَولاد ، وأرملوا النسوان ، وفارقوا البلاد الأَوطان ، فعند ذلك ، إذا صبروا على هذه المحن فاهْدِهم بعلمك وأتلُ عليهم حكمتك ، وطهّرهم بماء الحيـاة . وأوقفهم على طريق النجاة ، واقرأ عليهم الـكتب المصونة ، والأَسرار المخزونة ، والعلوم المـكنونة بشرح ما فى هذه الرسالة الجامعة ، وما فى غيرها من الـكتب التى ألقيناها إليك وأودعناها عندك لحيـاة من قبلك ، وهى المدارس الأَربع ، والـكتب السبعة ، والجفران ، والرسائل الخمس والعشرون ، والرسائل الإحدى والخمسون ، والرسالة الجامعة، فعرِّفهم جميع ذلك ، وأوقفهم على الأَسرار ، وعلى معانى الأخبار ، والروايات ، والأمثال ، والإشارات ، والعلامات . فإذا قبلوا ذلك عنك ، ورأيته مصوراً فيهم ، مستقرَّاً عندهم ، فاجعل على كل جبل منهم جزءاً ، ثم ادعهن ، يأتينك سعياً ، واعلم أنَّ الله على كلِّ شىء قديرٌ . فـكذلك يجب أن تكون عشرتك لهم ، إذا عرَّفتهم بما يجب لك عليهم ، وما يجب لهم عليك ، وكن لهم أباً شفيقاً ، وطبيباً رفيقاً ، ولا تكن نزقاً ، ولا خَرِقاً ، ولا منحرفاً ، ولا متجبِّراً ، ولامتكبراً ، ولا متغيِّراً ، ولا تحمِّل أحداً منهم فوق طاقته ، ولا تـكلّفه فوق وسْعِه فإن الله تعالى لا يكلّف نفساً إلّا وُسْعَها ، لها ما كَسَبَتْ ، وعَلَيها ما اكتَسَبَتْ ، وهذه إحدى وخمسون رسالة ، وهذه الرسالة تقليدنا لك ، وعهدنا إليك ، فيما أمرناك به ، وأمرناك له ، فاعمل فيه بموجب الأمانة ، وإياك والخيانة ، وألقها إلى من أُمرت بهديه وهداه ، وإخراجه من عماه ، وتعريفه ربه وأولياءه ، وما يجب له من ذلك بقدر احتماله ، وما توجبه له أعماله ، وما يبدو لك من أفعاله ، بعد إيقاعك المحنة به ، فإن ثبت فرقِّه إلى العلى ، وإن زلّت به قدم فاعتمـد به على

الأخرى ، وإن زلّت به القدمان ، وعدم المنزلتين ، فخلّه فى مكانه ، ولا تُعْنَ بشأنه ، واطوِ عنه ما كنت ذكرته ، لئلا يحتجّ به عليك فى باطله ، وما يبديه من سوء عمله ، إذا اُتبع الشياطين ، ورافق الظالمين ، وأغلق دونه بابك ، وأسبل فيما بينك و بينه حجابك ، ولا توحشه ، وقل له قولاً ليناً ، وعظه عظَةَ المؤنس له فإن تاب وأناب ، فهو على ما تريده منه ، وإن أبى ، فما على الرسول إلَّا البلاغ المبين[1] .

---

(١) الرسالة الجامعة : ج ٢ ، ص ٣٩٥ - ٣٩٨

مباحث للتوسع فى دراسة إخوان الصفاء

الدسوقى (عمر) : إخوان الصفاء ، القاهرة ١٩٤٧

الطيباوى (عبد اللطيف) : جماعة إخوان الصفا (مجلة الكلية ، السنة السابعة عشرة)

عباسى (أديب) : مباحث عن إخوان الصفا (مجلة الرسالة ، السنة الثانية ، الأعداد ٢٦ ، ٣٥ ، ٤٠)

غلاب (الدكتور محمد) : جماعة إخوان الصفا (المشرق ، ١٩٤٥)

الفاخورى (الأب يوحنا) : إخوان الصفا ، حريصا ١٩٤٧

فروخ (الدكتور عمر) : إخوان الصفا ، بيروت ١٩٤٥

مقدمة الجزء الأول من رسائل إخوان الصفاء ، طبعة القاهرة ، ١٩٢٨

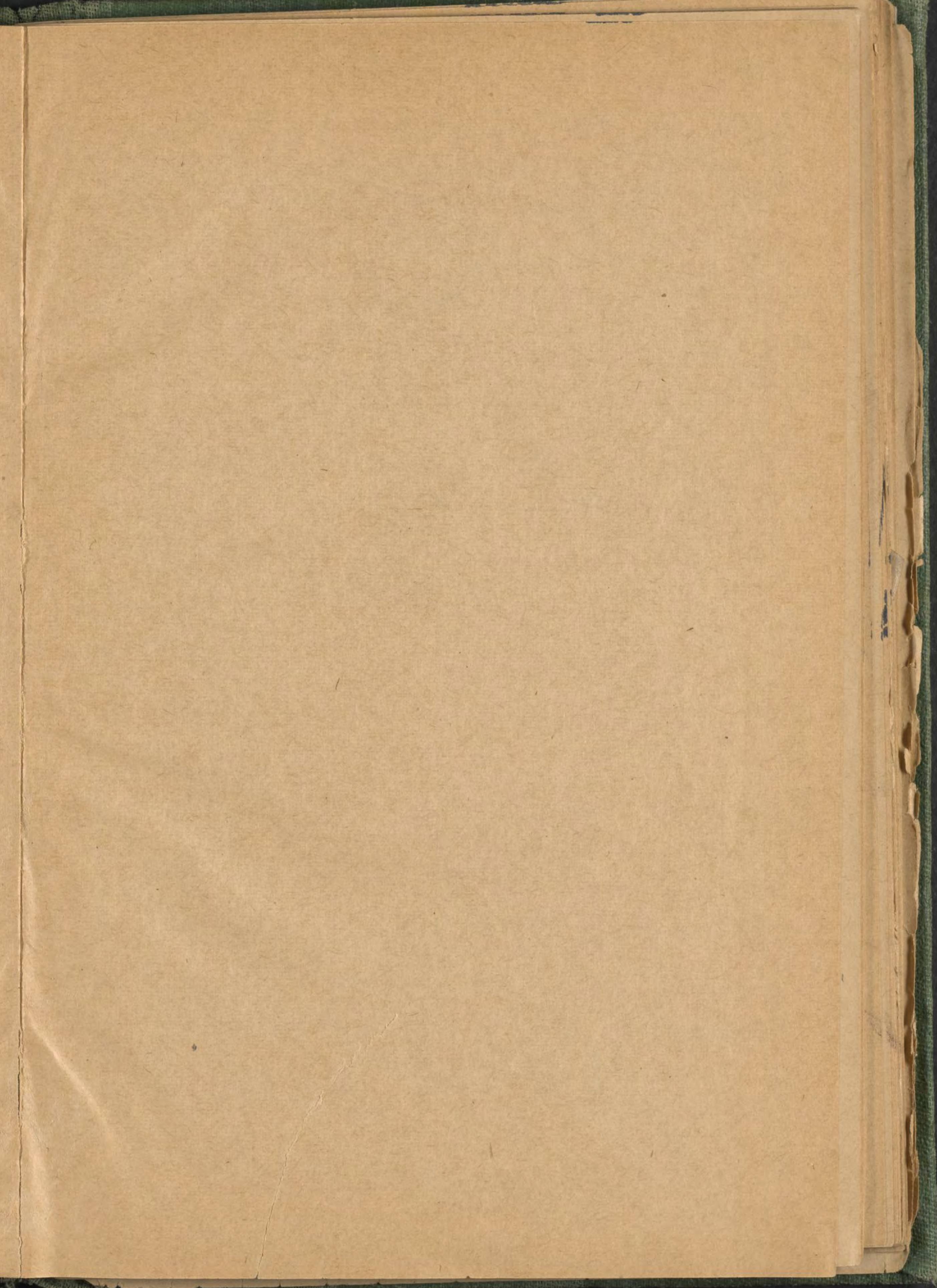
'Awā ('Adel) : L'Esprit critique des "Frères de la Pureté" Beyrouth, 1948

Brockelmann : Gesch. der arab. litt. I, 214

De Boer : Geschichte der Philosophie im Islam, p. 76-89
نقله إلى العربية أبو ريدة ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٩٥ — ١١٤

De Boer : Ikhwân aṣ-Ṣafā (Encyclopédie de l'Islam.)

Massignon (L.) : Sur la date de la composition des "Rasaïl Ikhwân aṣ-Ṣafâ (Der Islam, IV, 324)



فهرست

الفصل الأول

عصر إخوان الصفاء

صفحة

الفصل الثانى

إخوان الصفاء فى عصرهم

الفصل الثالث

جوانب إخوان الصفاء

صفحة

الفصل الرابع

منتخبات من آثار إخوان الصفاء

صفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف
فى شهر أبريل (نيسان) سنة ١٩٥٤